غوركي

حادث فرق العادة

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الاولى
١٩٥٤/٦

الاهداء

●

الى الذين ينظرون الى ما في الحياة من احداث عادية
فيها وحشية وعبودية
فيسعون الى خلق احـــداث فوق العادة
فيها انسانية وحرية

أهدي هذا الكتاب

حمص ١ / ٥ / ١٩٥٤

عبد المعين الملوحي

المقـــدمة

ليست الترجمة تجارة ، وما كان ينبغي لها ان تكون كذلك .

انها قبل كل شيء ان يجد المترجم فيما يقرأ نصيبا من الحق والخير والجمال ، وان يحب هذا المؤلف ويحترمه ، لانه استطاع ان ينير عقله بقبس من الحق ، وان يدفع يده الى القيام بعمل من اعمال الخير ، وأن يغمر قلبه بفيض من الجمال ، ثم ان يجد في نفسه رغبة جامحة في أن يشاركه اخوانه وابناء وطنه في التمتع بما قرأ ، فينقل الى لغتهم هذا الكتاب .

وأما أن نترجم لان في الترجمة ربحاً ، ولان لهذا النوع او ذاك من الكتب رواجاً في السوق فتلك جريمة شنعاء يرتكبها المرتزقة فيهينون المثل العليا التي دافع عنها المؤلفون من فلاسفة وعلماء وأدباء وشعراء ، هذه المثل التي اضطهدوا في سبيلها فزجوا في غيابات السجون ، ونفوا الى اقاصي الارض ، وعلقوا على حبال المشانق .

وليست الترجمة عبثاً ولهواً ، وما كان ينبغي لها ان تكون كذلك .

انها في الدرجة الثانية فن له قواعده وأصوله ، فهي تتطلب من المترجم فهماً كاملا للنص المترجم ، وحرصاً تاماً على اداء ما فيه ، واخلاصاً شديداً في ان ينقل الى لغته نقلا دقيقاً صحيحاً كل ما اودع فيه المؤلف من افكار وآراء وعواطف .

وليس يجوز للمترجم ان ينتزع من الكتاب ما يريده هو ممسوخا لا ما يريده الكاتب كاملا ، وليس يجوز له ان يجعل مثلا من الرواية ذات اللحم والدم والحياة هيكلا عظمياً تتراكم فيه الحوادث عارية ليس يكسوها لحم ، وليس يجري فيها دم ، وليس تنبض فيها حياة .

وليس يجوز له ان يتساهل فيما لم يفهمه ، وان يحور فيما فهمه ولم ينل رضاه ، وانما ترجمة الكتاب أمانة في عنق المترجم يجب ان يؤديها للمؤلف كاملة غير منقوصة فان لم يؤدها حق الاداء كان لها خائنا .

وليس يجوز للمترجم أن يجعل الترجمة أقل من الاصل صحة لغة ، وسلامة تركيب ، وصفاء أسلوب ، ولا سيما اذا كان الكتاب أدبيا ، فهو آنئذ يحتاج اسلوبا محكما يساوي او على القليل يقارب ، ان كانت المساواة غير ممكنة ، وانها لكذلك ، الاسلوب الذي ادى به المؤلف أفكاره وعواطفه ، فالاغلاط اللغوية تشوه الافكار ، والركاكة تقتلها وتمتص كل ما فيها من نسغ الحياة ، فيبدو الكتاب جيفة انتزعت منها الروح ، او طيفا ليس له جسد ، وكلاهما لا يوحي الى النفس انه حي .

تلك كلمة أملاها علي احساسي العميق بواجبي ، وحبي الجارف للكاتب العالمي العظيم مكسيم غوركي ، فقد كثرت الكتب التي ترجمت له ولكني وجدت في كثير منها وبا للأسف رغبة في التجارة

بهذا الانسان وهو لعمري انسان طالما حارب هـذه التجارة القذرة ، ثم لم يمت الا بعد ان الغاها الغاء وانتصر عليها انتصاراً، فمن الجريمة ان نجعله نحن مادة لتجارتنا .

وأنا أهيب بكل انسان شريف يحب غوركي ، ويخلص لمثله العليا التي أخلص لها ، ويريد ان ينصرها كما نصرها ، الا ينشر والا يعين على نشر ما يشوه هذا الكاتب العظيم ويسيء اليه .

لقد عاهدت نفسي على ان أنشر مؤلفات مكسيم غوركي كاملة وأنا ماض في تنفيذ هذا العهد ، وهذا الكتاب الذي بين ايدي القراء ثالث كتب ثلاثة نشرتها له ، أما الكتاب الاول فهو « ذكريات حياتي الادبية » وقد طبعته في مصر، وأما الكتاب الثاني فهو : « المتشردون » وقد طبعته في حمص ، وأعيد عهدي بنشر مؤلفاته الكاملة كما ترجمتها ، ما نشره غيري منها وما لم ينشره ، ولقد سعيت وأرجو ان يرى الناس جميعا ما سعيت اليه من ان تكون الترجمة أمينة صادقة اولا وان تكون عربية مبينة سليمة ثانيا ، ولئن أسفت على شيء فأسفي اني لا انقل مؤلفات غوركي عن لغة غوركي وانما انقلها عن اللغة الفرنسية .

ولنحلل الآن ، بعد هذه المقدمة ، التي اعتقد انها واجب مؤكد، هذا الكتاب الذي بين ايدينا تحليلا موجزاً .

طالما تحكمت بالانسان حوادث الحياة اليومية العادية حتى كادت تحوله الى آلة او الى حيوان ، ولكنها على مافيها من مآس وكوارث لم تقض ولا يمكن ان تقضي على العناصر الانسانية فيه :

النهر يجري في مجراه هادئاً ساكناً ، والحياة يريد لها اعداؤها

واعداؤنا ان تمشي في مثل مجرى ذلك النهر هدوءاً وسكوناً ، ولكن النهر لا يلبث ان يفيض ويثور ، ولكن الحياة لا تلبث ان تنتفض وتتسع ، واذا بالنهر يحمل الى المروج من حوله الخصب والخضرة ويحمل اليها مع الخصب والخضرة شيئاً من الدمار والخراب ، واذا بالانسانية وهي اوسع من النهر مجرى ، وابعد عمقاً ، تثور على « رتابة » الحياة وعاديتها تلك الرتابة القاتلة ، وهذه العادية المجرمة ، واذا بها تنبض بعناصر التجدد والانطلاق ، هذا التجدد المنعش وهذا الانطلاق الخالد ، واذا بها تقلب ما في حياتها من عادية ونمطية الى خوارق وحوادث فوق العادة ، واذا باولئك الذين اضطهدوا وعذبوا يصبحون وقد نفضوا عن كواهلهم القوية الفتية اثقال العبودية وكسروا عن اعناقهم الدامية قيود الذل والظلم بايديهم الحديدية ، لتنطلق الى الابداع والانشاء :

« ها هي ذي الريح تمزق حجب الغيوم الكثيفة ، وها هوذا شعاع الشمس يسطع في زرقة السماء ، وها هي ذي هذه البهائم المراح تستقبلها بصرخة واحدة وهي تفتل شواربها فوق اشداقها الطيبة . أي انسان يستطيع ان يمنع نفسه من ضم هذه الحيوانات ، ذوات الفائتين ، ومن تقبيلها ؟ انها حيوانات ذكية فيما تعمل ، ماهرة فيما تصنع ، وانها لتغرق في العمل حتى تنسى نفسها . وهل يستطيع شيء في الوجود ان يقاوم هذه الطاقة من العمل الذي بدأ ، وهذه الفورة من القوة التي تفتحت راضية مطمئنة ؟ انها قادرة على خلق المعجزات ، قادرة على ان تهب ، في ليلة واحدة ، للأرض كلها ما يملؤها قصوراً رائعة ومدناً زاهية زاهرة تخجل منها القصور والمدن التي ورد

ذكرها في الاساطير . »(١)

ومكسيم غوركي في كتابه هذا يقص علينا انباء تلك الانطلاقة الى المجد والحرية ، واخبار تلك الثورة التي اشتعلت نيرانها في بلاده فنقلتها من جحيم الذل والجهل والفقر والمرض الى نعيم العزة والعلم والثروة والعافية .

وتتألف هـــذه المجموعة من حادثتين خارقتـــين ، فوق العـــادة :

١ ــ حادث فوق العادة .

٢ ــ حكاية .

أما القصة الاولى وعنوانها كما رأيت عنوان الكتاب نفسه فتمثل لنا في شخصية رجل ساذج ولكنه ذكي تلك القوى التي تنازعت الشعب في روسيا خلال عشرين عاماً قبل الثورة تقريباً ، واراد بعضها ان يحيد به عن الصراط المستقيم ، ولكنه في كل مرة كان يفهم ويمشي في طريقه حتى بلغ آخر مراحلها .

ويصور غوركي جانباً من ذلك الصراع الدموي الجبار الذي نشب خلال الثورة وانتهى الى نصرها نصراً مؤزراً .

وفي القصة الثانية يبرز لنا شخصيتين :

١ ــ شخصية شاب يحتقر ثروة عمه الضخمة التي سوف يرثها حتماً ليكون قائداً من قواد الثورة على لصوص الثروة ، وليحارب بيده ،

---

(١) ذكريات حياتي الادبية ،غوركي، دار القلم، ١٩٥٤

وليجعل من دار عمه حصناً يحتمي وراءه في الدفاع عن حقه في التفكير الحر لا في ارث مال عمه .

٢ ــ وشخصية كهل لم يتزوج وله ثروة كبيرة ، وهو مريض مهدد بالموت ، ولكنه يأبى ان يموت ، ويأبى ان يقبل وراثة ابن اخيه له ، ويأبى ان يصدق ان ابن اخيه يحتقر ثروته ولا يبالي بها ، وهو قد تنبسط نفسه ونرى فيه ظلاً من ظلال الانسانية لايلبث ان يتقلص عندما تهدد الثورة ثروته التي سوف يتركها حتماً بين ساعة واخرى ليصبح وحشاً ضارياً يدل الجند على مكان ابن اخيه ليقتلوه .

وسنرى في القصة نتائج هذا الصراع .

والقصتين بعـــد ذلك تعطينا جوانب مختلفة من المعجزات ، هذه المعجزات الانسانية الحاضرة التي تذكرنا بالمعجزات الالهيـة الماضية ، هذه المعجزات التي تكتسح العالم اليوم قطراً بعد قطر لتنشر على هذه الارض الجميلة العزيزة التي اثخنتها الجراح وغسلتها الدماء راية العدل والسلام والحرية .

حمص ١ / ٩ / ١٩٥٣

عبد المعين الملوحي

حادث فوق العادة

في قصر من تلك القصور ، قصور الامراء الممتدة على ضفاف « النيفا »، وفي غرفة من ذلك القصر مرقشة ، على الطراز «المراكشي»، قذرة ، متجهمة باردة ، جلس يترجح على كرسيه ، وقد ارتدى ثوباً رمادياً من ثياب الجنود .

كان قد جاوز الاربعين من عمره، ربعة ، صلب العود ، وكانت رجله اليسرى عرجاء فهو يمدها مداً ، ويضع رجله اليمنى على الارض في قوة .

وجلس يتحدث فاذا بلغ المقاطع الحساسة في حديثه ضرب الارض بعقبه العريض كأنما هو حصان يضرب الارض بسنابكه ، وتشعثت على رأسه شعرات يابسات ، لونها لون لحاء الزيزفون ، ونجمت على عارضيه وذقنه هنا وهناك خصلات نحيلة من شعر اصفر ضئيل ، وانتصب تحت انفه المزعج شاربان محفوفان ، من يرهما يتذكر فرشاة أسنان عتيقة مهترئة .

ليس في وجه هذا الرجل ذي الشدق الواسع الذي تملؤه أسنان

قوية صلبة ما يلفت النظر ، ولكنه وجه مثل تلك الوجوه التي تشبه وجوه السمك ، قاتمة، حادة، ذات عيون ليس لها لون معين ، تلك الوجوه التي تنتشر في المقاطعات الوسطى من روسيا ، وتضيء هذه الوجوه في الغالب عيون صغيرة تتطلع حيناً الى السماء ، وتحدق حيناً في الارض ، ولا تنظر اليك حين تحاورها الا شزراً . وانك لتشعر في نظراتها هذه بشيء لا تحدده من رياء روحي ، ومن سوء ظن بالناس جميعاً أوحاه الى صاحبها طول ما قاسى من خداع الناس له ، ومكرهم به . وربما برقت احياناً في اعماق هذه العيون حدة باردة تنغمس فجأة في نفس من يراها كأنها ابرة تنغمس في القماش ، فتكشف عن ذكاء وقاد يواريه صاحبه في مهارة وحذر .

ولقد أيقظت في نفسي هذه اللمعة الحادة في نظرته رغبة «دبوجين» هذه الرغبة التي يتميز بها الاديب . واستطعت اخيراً ان انتزع من هذا الرجل ، ذي الاسنان الصلدة ، قصة حياته .

اذن فها هو ذا يقص القصص غير معجل . ينتزع الكلمات واحدة بعد واحدة . ويصمت قليلا لأفهم انه يعرف ما في حديثه من قيمة . ولأفهم مرة اخرى انه يعرف انه طالما ادهش من استمع الى حديثه قبلي . ولربما غالى في تبجحه هذا ، فرنت الوقاحة في حديثه لحظات ، واهتزت شعرات شاربيه ، وبدت تحتهما شفة تلتوي التواء مضحكاً ، فاذا أصبح حديثه مكفهراً حزيناً تغضنت أسارير جبينه ، وبرقت عيناه بريقاً رطباً غريباً ، واتسعت حدقتاه فما تدري عند ذلك أهو خائف مذعور أم متعجب مستغرب .

كان لا يزال يثبت قدمه ، ويوالي ترجحه وانه لترجح ساء ما

لاءم مقاطع قصته المحكمة ، أما يداه القاتمتان فكانتا تضربان ركبتيه ضربات قلقة ، ثم تنقلان ما على المنضدة من الاوراق والدواة والمرملة من مكان الى مكان . ثم تلمسان الريشة الخشبية . ثم لا تكادان تستقران قليلا ، حتى ينظر الى ما غير من مواضع هذه الاشياء ، وعيناه مغمضتان ، فيبدأ عمله من جديد ويغير مواضعها مرة اخرى ، واذا به بعد ذلك يدفع دفعاً هذه الاشياء جميعاً في غيظ ظاهر ، ويهملها اهمالا ، ويمد يده الى الحائط المرقش فيقشره باصابعه ، او يحك ألوانه المذهبة والحمر والزرق او يحت جصه ونقوشه العربية المعقدة.

ولقد خيل الي انه يضيق ذرعاً بهذه الغرفة الشاذة . فهو يتقصى نظره من النافذة التي قطعتها ظلال الشعرية المقرنة ، دقيقتين او ثلاث دقائق ، صامتاً ، يلوي رأسه ، ويقيم عنقه ، باحثاً عن شيء ما فوق تلك الصفحة العريضة التي يخطها نهر النيفا المقفر . وربما رأيته وهو يحل أزراره ثم يعقدها كأنما يريد ان يخلع ثيابه ليتخلص من ثقل خارجي يرهق جلده وتنوء به عظامه .

أما صوته فكان أجش يأتيك من مكان بعيد كأنما هو يخرج من أعماق صدره .

قـــال :

ـــ أقمت في سيبيريا ، واوراق هويتي منها ، ولكني ولدت في روسيا ، ببلدة سافاتما . وسافاتما هذه في مقاطعة ريازن. ولقد ورثت اسم سافاتما من ابوي كليهما اللذين طالما رددا على مسامعي : نحن من اهل سافاتما . وهكذا ظللت حتى بلغت السابعة عشرة من عمري لا الفظ اسم هذا البلد سافاتما بل ساماتما . وكنت اعتقد انه نهر اسود

سواداً ليس له مثيل . ولذلك فلم أحدث عنه احـــداً ، حتى رفاقي الصغار ، ولم افتخر به ابداً . ولعلي كنت أستحي من ذكره . وكيف أذكر هذا النهر الاسود وانهار سيبيريا صافية لامعة ! ؟ وأخيراً سمعني تاجر آلات زراعية اقول ساماتما فأصلح خطئي وقال لي في غلظة وجفاء :

ـــ أيها الغبي ، انها سافاتما وليست ساماتمـــا . وهي ليست نهراً ولكنها مدينة ، بل هي مقاطعة ..

وصدقته رأساً . وسرني ان سافاتما هذه ليس فيها شيء خارق للعادة .

لست اذكر قريتي ، فهي قرية عادية ، ولا شك ، ولكني لا ازال اذكر بلداً آخر يقع على هضبة تطل على نهر ، ومن وراء هذا البلد دير في مركز نصف دائرة من الغابات . وهذا البلد ، ولا يزال يمثل في خاطري ، ليس بلداً وانما هو ألعوبة من الألاعيب فيها ألاعيب كثيرة مثلها : بيوتها الصغيرة ، وكنيستها القميئة ، ومواشيها : كلها قدت من الخشب ، اما اشجارها فطحلب اخضر .

أحببت في طفولتي هذا البلد ، وحين هاجرنا الى سيبيريا ، وكنت في العاشرة من عمري ، فقدت امي واخي الصغير خلال الهجرة ، سقطا من القاطرة فماتا ، ولحقهما ابي بعد قليل صدفة : أكل كثيراً من السمك ، فمات .

وطوفت في القرى اتسول في صحبة عجوز صغير . كان هادئاً رصيناً لم يضربني ابداً . وبقينا رفيقين سنة أو تكاد . وبينما نحن في سوق مدينة صغيرة رآني ترفيم بوبيف ، وهو فلاح عجوز ، فدفع

لصاحبي العجوز روبلا واحداً واتخذني خادماً .

كان سيدي الجديد ضخماً شرساً ، يجمع بين الشره والتقوى . كان من اولئك الذين يعيشون زوراً وبهتاناً : من اولئك الذين يظنون انهم اوصياء عليك ، موكلون بك ، وان عليهم ان يؤدوا الى الله حساباً عن اعمالك انت ، اما هم فلا يؤدون عن انفسهم حساباً ولا يبالون معصية ولا إثماً . ومن اجل ذلك فهم يكتمون انفاسك ويعدونها عليك ، اما هم فيشخرون شخيراً .

كرهته مباشرة . كرهته وكرهت اهله لانهم جميعاً قساة غلاظ الاكباد ، جشعون يطمعون في كل شيء ... ولقد فهمت منذ طفولتي ما في العمل الذي يجاوز طاقة الانسان من وحشية وظلم ، ومن مناقضة للعقل والمنطق : كان لهذا الفلاح العجوز عشرة افراس ، وسبع عشرة بقرة ، وثور ، وغنم ، ودواجن . كان له كل ما يكفي حاجته ويفيض عن حاجته ، ومع ذلك فقد كان يشتغل هو ، ويرغم الناس على العمل ، كأنما هم جميعاً مساجين حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ..

كانوا يأكلون في كراهية ، فاذا شبعوا واكتظوا اكلوا وهم شباع ، فاذا اصبحوا حمر الوجوه من الشراب ، قب البطون من الطعام ، لم يزالوا يأكلون ويقضمون ويتعبون . عمل كثير وطعام كثير : هذا هو سر وجودهم وكنه حياتهم .

فاذا حلت أيام الاعياد لبسوا ثيابهم ومضوا زرافات الى الكنيسة وتقع على بعد اثني عشر فرسخاً من بلدنا .

أما أسرته فكانت كثيرة العـــدد : هو رب الاسرة واولاده

الثلاثة من زوجه الاولى ، واحد منهم جندي ، وكنتان ، وصهر له زوجه ، وكان اخرس سقط من عجلة فقطع لسانه ، وابنة أصغر مني بسنتين ، تدعى «ليوبا» ، وهي من زوجته الثانية التي كانت بهيمة حقاً ، عينا فرس وقوة رجل . وهنالك عامل روسي يدعى مكسيم ، وانه لمحب للنوم عظيم : كان ينام وهو واقف ، ونساء عجائز كثيرات كأنهن السعالى أو كأنهن الجرذان .

وعندما بلغت السابعة عشرة من عمري غرز مكسيم المذراة في وركي خطئاً غير متعمد ، ومضت سنة ووركي يؤلمني ، ثم جعل ينز صديداً وقيحاً ثم جعلت اعرج ، وعند ذلك فطن سيرج الى مشيتي ، وقال لابيه ونحن نتعشى :

ــ ان يعقوب يجر رجله جراً ، وعلينا ان نعنى بها .

وقال له ابوه :

ــ ستشفى رجله دون علاج . واذا لم تشف فذلك خير لنا ، فسيكون اعرج ، واذاً يعفى من الخدمة العسكرية .

كذلك انتهى الامر عندهم ، أما انا فقد ازعجني هذا النبأ وآذاني : كنت فتى قوي البنيان ، وكنت اذا مررت بالصبايا وانا اعرج خجلت ، وكن يسخرن مني ، وعند ذلك قررت ان اغادر منزل بوييف ، وفاتحت في امري « ليوبا » فقالت لي وهي ناصحة مشفقة :

ــ سافر .. سافر والا فتكون جهداً ورهقاً . ألا تراهم جميعاً قد حكم عليهم بالهلاك ؟

كانت « ليوبا » صبية حزينة سقيمة البدن ، حتى انها لم تكن تستيطع ان تخض السمن . وكانت لي صديقة وفية : علمتني القراءة قسراً . وكانوا لا يحبونها فيسخرون بي وبها ويقولون :

ـــ ماأحسن هذا الخطيب الاعرج !

أما هي فلم يخطر لها ذلك كله في بال . كانت تساعدني على احتمال أعباء الحياة هكذا في بساطة وسذاجة ، وكانت نقية طيبة ، تكره توافه الامور ، عيناها كبيرتان مثل عيني امها ، ولكن فيهما لألاء ونوراً ، وكانت ضامرة نحيفة . كانت قل ان تضحك ، فاذا ابتسمت قليلاً شعرت اني خفيف كالعصفور طروب كالطفل ، وكانت كذلك لاتبكي ، فاذا ضربوها انكمشت على ذاتها ، وتضاءلت اعضاؤها ، وهي ترتجف وتغمض عينيها . كانت اكثر من في الاسرة ذكاء ، ومع ذلك فقد كانوا يعدونها بلهاء . ولكنها كانت قاسية ايضاً : تحب تعذيب صغار الحيوان من كلاب وقطط ويسرها على الخصوص ان تخنق الفراريج فتمسك بواحد منها وتخنقه بيديها .

سألتها ذات مرة :

ـــ لم تفعلين هذا ؟

فلم تجبني ، وهزت كتفيها . وظني انها كانت تجد في هذا العمل ما تفرج به عن غيظها وحقدها على الناس ، وما تنتقم به لنفسها من خبثهم وقسوتهم عليها .

ودعتها في الربيع وسافرت . وحاول بوييف ان يمنعني ، وحجب عني جواز سفري ثم سلمنيه وساعدتني في استعادته ليوبا .

طوفت في الآفاق سنتين دون ان ألقى حادثاً ، ولست اجد ما اتحدث به عن ذلك العهد . عشت في بلدة بارناؤول عند طبيب شفى ساقي وترك لي عرجي ، وحدثت نفسي قائلا :

« سأعيش حتى ابلغ العشرين من عمري وانا نائم ، لا اريد ان أرى

حادثاً فوق العادة » .

وربما تذكرت البلد في غمرة من غمرات الضجر وفكرت :

« هناك يجب ان اعيش »

ولكني لم اكن اعرف اين يقوم ذلك البلد ، ثم نسيته ، ولكني لم انس « ليوبا »، لقد أرسلت اليها ذات يوم كتاباً فلم ترد علي .

عشت عند الدكتور « الكسندر سيريلوفتش » هادىء البال ، قليل من العمل ، اقطع الحطب ، اشعل المدفأة ، اساعد الطباخة ، انظف الاحذية والثياب ، ارافقه الى المرضى .

ولم يكن الدكتور معاقراً للخمر : كأس او كأسان ، من حين الى حين ، طلباً للصحة ..

قامرت في حذر ، واحبتني النساء هكذا مجاناً ، واغلقت نفسي فنظر الي الناس نظرتهم الى غبي ، وجمعت مالاً .

وفجأة ها انذا اتدحرج من قة جبل شاهق ، وهاهي ذي حوادث فوق العادة فريدة خارقة تعترض طريق حياتي الهادئة الوادعة :

قتل في جوار منزلنا رجل وامرأة ، ولم أبت تلك الليلة في المنزل ، فألقي علي القبض ، وظهر أن جواز سفري ليس اصولياً ، وان أحرفه فيها تبديل ، فقد كتب اسمي فيه « يعقوب جازيكوف » مع ان اسمي الحقيقي « يعقوب زيكوف » .

وكأن الاقدار أرادت أن تعبث بي فاندلعت نيران الحرب اليابانية نكاية بي ، وقال لي المستنطق :

ــ انت تعترف ان جوازك هذا ليس فيه اسمك ، اذن فأنت تحاول الفرار من الخدمة العسكرية ، ومن يدري ؟ ربما أردت

أمراً اكثر من هذا خبثاً وشراً .

وبينت له ان العلامات الفارقة في الجواز تثبت اني اعرج ، وانها ، بالتالي،تنطبق علي انطباقاً تاماً أنا يعقوب زيكوف

ولكن ليس في سيبيريا أحد من الناس يصدقه احد من الناس .

واخيرآقال المستنطق:

ــ ربما كنت بريئاً من الجريمة ، ولكن يجب ان احقق في أمرك.

كان الدكتور غائباً في تومسك وقازان ، وليس لي من يعبأ بي.

ألقيت في غيابة السجن، وجعل اللصوص يسخرون مني ويقولون:

ــ ليس اسمك جازيكوف كما هو مذكور في الجواز ، وليس اسمك زيكوف كما تدعي انت ، ولكن اسمك الحقيقي « جازيف[1] » لان شدقك هذا شدق سمكة .

ومنذئذ لم ينادوني الا باسم « جازيف » . تلك الحماقة فوق العادة أزعجتني حتى لم استطع الى النوم سبيلا طوال ليلتي الاولى في السجن وظللت اسائل نفسي :

ــ أمن المعقول ان يترك انسان من بني آدم ينفق كما تنفق البهيمة لان في الورقة غلطة قلم ليست ذات قيمة ؟

وشكوت الى الله امري ، فقد كنت في ذلك العهد مؤمناً تقياً ، ومع ذلك فلم أصل في السجن لان الناس فيه يسخرون من المصلين والمؤمنين ، ولذا فقد كنت اقتصر على رسم الصليب فوق صدري في الخفاء حين أستلقي في فراشي ، ثم اتلو ورداً أو وردين .

اما قبل ان اسجن فقد كنت اصلي في حماسة وانا راكع ،

(١) السمك في الروسية .

وأقرأ « قانون الايمان »مرة وابانا مرة و «العذراء مريم » ثلاث مرات ، وكنت احفظ هذه الاوراد جميعاً عن ظهر قلب ، فقد علمتني « ليوبا » اموراً كثيرة ، حتى اني بدأت أكتب بالمخرز على قشر الشجر .

نعم ان الايمان غباء ، ولكنني كنت في ذلك العهد شاباً لا يشغلني الا الله .

كان معي في زنزانتي سبعة مساجين : اربعة من سارقي الخيل ، ومسلول يختنق ، وعجوز متشرد ، وصانع اقفال في سكة الحديد مر بنا في مرحلة من مراحل طريقه الى روسيا . اما اللصوص فكانوا يقضون سحابة نهارهم وهم يقامرون ، ويغنون ، واما الشيخ المتشرد وصانع الاقفال فقد انتحيا ناحية يتناقشان ويتجادلان جدالا لا ينقطع ، والشيخ قبيح جداً : طال حتى كأنه العود، وطال شعره حتى كأنه فروة خوري ، وانقلب انفه رأساً على عقب ، وقست عيناه في خبث ومكر ، ومع ذلك فقد كان اكثرنا عناية بهندامه : يستيقظ قبل الناس جميعاً ، فيغسل وجهه بخرقة نظيفة ، ويمشط شعر رأسه ولحيته ، ويزرر كل زر في ثيابه ، ويظل واقفاً وهو يصلي لا يتمتم ولا يشير ، ولا ينظر الى الايقونة في زاوية الحجرة ، ولكن الى النور من خلال النافذة الى السماء . كان مريداً من اصحاب الطرق ولكنه مريد ذكي ؟ اما صانع الاقفال فكان اسود كالغجري او اليهودي ، يكبرني عشر سنين ، ثرثار مدهش ، حديثه فوق العادة لا تحب ان تسمعه ، شعره كأنه شعر قنفذ ، اسنانه لامعة كأسنان الزنوج ، شارباه اسودان صغيران ، وعيناه مثل عيون سكان الكرغيز ،

لكأنه كان مطلياً كله مثل ذلك « الفقم » العالم الذي يظهر على المسارح ، ويزيد عليه انه لا ينقطع عن الصفير .

وسمعت العجوز يتمتم ، واللصوص نائمون :

ـــ علينا بالبساطة . ان الناس يتيهون في امور كلها عبث لا طائل تحته ، وهم من اجلها يسحق بعضهم بعضاً . علينا ان نجعل الحياة بسيطة .

وصانع الاقفال يدمدم في غيظ :

ـــ وهذا ما اراه !

ـــ كلا ثم كلا ، انك تعبد ما كان ، ولست وحيداً فيما تعبد . انكم تكذبون جميعاً ، وانت تكذب ايضاً ، انك تريد ان تكون فذاً ، فوق العادة ، مستعلياً على الناس ، مستأثراً ، وكل ما في الحياة من شقاء سببه ان كلاً منا يريد ان يكون ذا تميز ، وهنا منبع الالم ، ومن هنا تنساب افاعي السيطرة والتحكم والارهاب ، وهاهنا يكمن كل ما في الغذاء والكساء وسائر حاجات الناس من تفريط وافراط . وكل هذا ينبغي لنا ان نقضي عليه قضاء مبرماً . اسمعت ؟ حيث تكون الخصوصيات تكون السلطة ، وحيث تكون السلطة يكون العدوان والمحاباة والجنون على اختلاف فنونه . انكم ايها الناس لتتفانون وتتعادون في سبيل هذا التخصص ، فيا لكم من مجانين ! الانسان لا يملك الا ذاته ، وعليه ألا يملك الا ذاته ، عليه ألا يملك الناس ، وألا يملك شيئاً دون الناس . ألا تراهم ألصقوا على ظهرك جزازة من ورق ، ثم ها هم اولئك يقذفونك حيث يشاؤون ، وانت لا تملك لنفسك ضراً ولا نفعا ولا عملا ولا سروراً .

فهمت فهما مطلقا كل ما كان الشيخ يقوله : كانت كلماته هذه

هي الكلمات التي اختلجت في نفسي ثم جمجمت على لساني ، واذا كانت الحقيقة تكمن في ذاتك أعدت لكل سؤال جواباً ، انهـا لكثيفة كثافة تستطيع معها ان تمسك بها امساكا .

وسخر اللصوص مني ، وظنوا اني غبي ، ولست الا متغابياً . انك حين تتغابى تكون اكثر هدوءاً وطمأنينة ، واكثر مقدرة على معرفة الناس ، فهم لا يكترثون بالاغبياء ولذلك فهم يرسلون انفسهم على سجيتها امامهم . وهكذا نظر الي هذان المتحاوران الدائمان نظرتهما الى لا شيء ، فكانا لايكفان عن الوشوشة في غيظ ، وكنت لا أكف عن الاصغاء اليهما في اهتمام .

ولم أجد ، على ما فهمت ، ما يدعوهما الى النزاع ، بل رأيت انهما كانا على وفاق :

ـ علينا ان نجعل الناس متساوين ، وان نقضي على كل تميز وتفرد ، ولو فعلنا ذلك لاصبح الناس جميعاً ، شاءوا أم ابوا ، اخواناً على سرر متقابلين ، ولاصبحت كل الحياة يسيرة لينة . علينا ان نجعل الناس جميعاً كما يكون الناس جميعاً عادة ، اما الطبقات ـ الكهنة والتجار والموظفون ـ اما السادة على العموم ، فيجب ان نقضي عليهم قضاء وان نلغيهم الغاء ، يجب ان لايكون فوق الارض رجل واحد يستطيع ان يشتري خبزي وعملي وضميري .

قال الشيخ :

ـ علينا ان نهب الاجنحة للروح ، لتطير حيث تشاء ، ولولا الحرية الروحية لما كان الانسان .

كنت اشرب هذه الافكار كما يشرب المتعب كأساً من الخمر

المنعشة ، واشعر عندئذ ان روحي تنبت لها ، في الواقع ، اجنحة من نور .

وقلت في نفسي: « تباركت ايها السيد المسيح . ما اطهر البساطة في الناس ، وهم مع ذلك يعيشون في غمرة من الآلام . »

كنت أفكر في ذلك كله ، وابتسم لذلك كـــله ، واللصوص يسخرون مني وتزداد سخريتهم ويصيحون :

ــ انظروا ، انظروا ، هذا جازيف يحلم بخطيبته .

فأسكت ولا اجيب ، وأمعن في التغابي ، وأصغي ثم اصغي الى ذينك المتحاورين فلا اجد انهما يفترقان الا في نقطة واحدة : أمـــا صانع الاقفال فيزعم ان الله ــ عز وجل ــ ليست له ضرورة ، وليس فيه نفع ، فكان العجوز يثور ويغضب ، وكنت انا أغضب واتألم لما في حديث صانع الاقفال من غلظة وفظاظة ، لقد كان الله في ذلك العهد نقطة حساسة في نفسي .

ولم ألبث ان ساقني الدرك الى البلد الذي فيه قيدي ، واكدت اسرة بوييف هويتي ، ورأيت ربهـــا يموت على فراشه ، وقد رفسه حصان ، فقال لي :

ــ لا تتركنا يا يعقوب ، فانت هـــادىء ساذج ، ولم تخلق لتكون متشرداً .

ولم أقبل عرضه ، فلقد رأيت منذ اليوم اموراً غير قليلة وتغلغلت في عقلي افـــكار ، واطبتني المدينة ، ونصحتني ليوبا فقالت لي :

ــ سافر يا يعقوب . سافر ونقب عن سعادتك .

وقصصت عليها اخباري وافكاري ، وقضيت ليلتي كلها وانا احدثها ، وادهشني ما رأيت في افكاري من تماسك وما في مسيرها من نظام وتناسق ، وليوبا تقول :

ـــ صحيح ... صحيح ...

وقلت لها : تعالي معي يا ليوبا .

فخافت وقالت :

ـــ وما عساني أنفعك ؟ لست الا عبئاً يثقل كاهلك ، ومريضة ترهقك ، ثم اني لا احب الناس الذين لا اعرفهم ، اما من هنا فقد ألفتهم لطول ما جربتهم .

اذن فقد ابت ان ترافقني ، فيا لها من فتاة بائسة ، رقيقة ، كنت ارى روحي في روحها كما ارى وجهي في مرآة ، وودعتني وهي تبكي ...

عدت الى الطبيب في برناذول ، وكان رجلا عظيما ، وذكياً جداً ، ولكن ذكاءه كان من الطرز القديم لا من طرزي ، وكان قاسياً جلفاً لا تعرف انه من السادة الا بما يمارس من عادات ، اما هيئته فهيئة فلاح : صلب العود ، ربعة ، يمشي كأنه اوزة ، وحركاته صارمة ليس فيها ما لا نفع فيه ، ووجهه وقور ، احمر ، ذو لحية ، وكان موفقا في عمله ، كثير العناية بالمرضى ، مدمنا للخمر ولكنه لا ينتشي ولا يسكر ، ويحب النبيذ على الخصوص ، وكانت عيناه حادتين مستقيمتين تلمع فيهما ابتسامة كأنها تقول لكل انسان :

ـــ عبثا تخفي نفسك ، فأنا ارى انك قبيح قذر .

وتهافتت عليه النساء وكان شبقا لا يكاد يرتوي ، ومع ذلك فقد كنت احس انه برم بالحياة ، كان عابس الوجه يتأوه ويدمدم ويصرف

اسنانه ويبصق ، كأنما اكل طعاما نتنا متفسخا ، ارضتني بساطته ولم ترضني ابتسامته التي كانت تقول لي : « ان صاحبي يرى انك ابله ، وان ثقته بك لا تساوي فلسا واحداً » وكان ذلك يؤلمني ولعله كان يخيفني .

رآني فاستقبلني استقبالاً وديا حاراً وقال مازحا :

ـــ اذن فقد عدت يا علبة المصارين .

أما علبة المصارين هـــذه فكانت كلمته المأثورة المشهورة . كان يمازح الناس جميعا كأنهم اطفال ، يمازحهم ويداه في جيبه . قدم لي كأسا من الخمر ، وامر باشعال النار في السماور ودخل المطبخ يسألني :

ـــ والآن حدثني .

نحن في فصل الشتاء ، وعند المساء ، والعاصفة تلف وتهوم وتزمجر ، وانا جالس الى المنضدة مع الدكتور كأني اجلس الى صديق حميم ، واتحدث فيصغي ويدخن وينبش لحيته ، وهي لحية غير كبيرة كأنها ذيل دجاجة ..

لم يحدث قبل اليوم ان تحدثت الى اي مخلوق ، مفتوح القلب ، منطلق اللسان ، اذا استثنيت ليوبا ، أما اليوم ، واما هذه المرة ، فقد اطلقت نفسي من عقالها تجري حيث تشاء ، وتذهب انى تريد ، واستيقظ في كياني تفكير مقدام جريء ، فلقد علمني السجن وعلمني السفر ان افكر في كل شيء تفكيراً عميقا ، تفكيراً ربما بلغ بي حداً أغرق فيه في افكاري ، واذا بي اصبح فجأة وكأني غير موجود ، وكأني لست سوى روح تعيش وحدها في الفضاء الواسع ، وهكذا

فقد انطلقت في حديثي في يسر وفي سهولة ، وكنت انا اول من اصابه العجب :

ـــ ليت ليوبا تسمعني .

وحدثت الدكتور عن صانع الاقفال وعن العجوز ، فجعل يضحك ويقول :

ـــ أرأيت كيف أضلوك ؟ الحياة عند الغبي سهلة بسيطة ،ولكنها عند الذكي اكثر صعوبة وتعقيداً . والآن عليك ان تقرأ يا يعقوب ، وان تطالع ، فالكتب تثبت لك عكس ما ذهبت اليه . ان الناموس الذي يهيمن علينا يجعل البسيط معقداً ، والارض قبل ظهور الانسان كانت حجارة ، وكفى ، لا تنتج شيئاً ولا ينبت فيها نبات ، ثم تفتتت الصخور وتحولت الى رمل وخضار ثم الى تربة منبتة ، ولم يكن في العصور التي سبقت التاريخ الا حيوان واحـــد ، هو عصفور ، اما الآن فانت ترى آلافاً مؤلفة من انواع الحيوان والطيور ، وكذلك كان سكان الارض ، كانوا جميعاً فلاحين ثم نجم منهم الامراء والملوك والتجار والموظفون والمهندسون والاطباء ، ذلك هو ناموس الكون .

كان يتحدث في مهارة وشعرت انه يلفني في كيس . وقال لي وهو يمزح :

ـــ يجب عليك ان تنظر من هناك ، من قمة هذه الرابية ، فهي في هذا المستنقع الذي نعيش فيه أعلى مكان .

شجاني حديث الطبيب وهزني ، وجار بي عن قصد الطريق زمناً غير قليل . اعطاني كتباً هذا المحتال ، ولكنها لم تكن الكتب التي

يقرأ ، فكتبه ضخمة مجلدة تملأ خزانتين ، اما الكتب التي اعطاني فرقيقة صغيرة ذات صور كأنها كتب الاطفال ، ومع ذلك فقد كنت اقرأ واقرأ وارى انها تهدف الى ابعادي عن افكاري. كانت تقص لي حياة الناس في العصور الذاهبات ، فأرى انها شاقة ، وأرى ان تلك الكتب تريد ان توحي الي ان حياة تلك العصور كانت اكثر خبثاً واعم شراً من حياتنا نحن في هذا العصر . انها كتب قمينة بتهدئة الاعصاب وهدهدة العواطف ، ومع ذلك فقد كنت اقرأ وافكر :

ـــ وما يدريني ان مافي هذه الكتب صحيح ؟ فأنا لم ار ما تقص علي . ثم اني لا اعيش في تلك العصور البائدة ولكني اعيش في عصري هذا وزمني هـــذا ، فماذا يجديني ان اعرف ما كان يجري في تلك العصور ؟ نحن لا نستطيع ان نجعل الماضي سعيداً ، فقد مضى امس يحمل اوزاره على ظهره الى غير رجعة ، ولكنا نستطيع ان نجعل يومنا هذا سعيداً ، واولى بنا ثم اولى- ان نتعلم في الكتب كيف نستطيع ان نبني المستقبل السعيد .

وسألني :

ـــ هل تقرأ ؟

ـــ نعم .

ـــ أليست القراءة لذيذة ؟

ـــ نعم .

لم اقل له ان كتبه لم تقنعني ، ولم اسأله عما يهمني ، وليس مـا يهمني ان اعرف ماذا كتب الناس في الكتب ، ولكن الذي يهمني ان اعرف لم كتب الناس ما كتبوا ؟ لم اسأله عن شيء من هذا

لاني أعرف انهم انما كتبوها ليسكنوا اعصاب الناس وليطامنوا من ثورتهم وقلقهم .

وألفت القراءة واصبحت لي عادة : انك لتكب على الكتاب وتغمس فيه بصرك كأنك تغمسه في هاوية سحيقة ، والكلمات تجري وتنساب ، والكلمات تترجرج وترقص ، والساعات تجري مهرولة غير منظورة ، ثم تعود الى نفسك ، يا للعجب العجاب ، كأنك لم تعش على الارض ، خلال تلك الساعات ، كأنك كنت في غير هـــذا العالم ، في عالم آخر مسحور .

ولست أحب ان اتذكر الكلمات التي ترد في الكتب ، بل لست قادراً على تذكرها ، وهبني على استرجاعها قادراً ، فليست لي بها حاجة ، ان لي كلماتي .

وكنت اجد كلمات لا افهمها : انها تطن في اذني طنينا ، ولكنها لا تعني شيئا . ومع ذلك فقد كنت مرعان ما ادركها ، وانت قادر على فهم افكار غيرك ان كانت لك افكارك ، والفكر نور صادق يريك ما في الناس من رياء وخداع ، وهكذا كانت افكار الناس تذوب في افكاري كما تذوب الفراشة في نور الشمعة. ذلك أمر يحق لي ان افخر به .

ورأيت ان حواري للطبيب يفيدني اكثر مما تفيدني المطالعة ، وكان اذا فرغ من اعمال المستشفى وعيادة المرضى ، خلع معطفه وحذاءه ، ولبس نعلا رقيقا ، وتمدد على ديوان والى جانبه زجاجة نبيذ ، ثم لا يزال متمدداً يدخن ويشرب ويبتسم ويثرثر ويدور حول موضوع واحد :

ـ نحن عبيد الماضي ، فللخرافات في نفوسنا جـــذور متأصلة عميقة وعلينا ان نقتلعها في حذر وحيطة والا أفسدنا التربة الطيبة. امس يحكم اليوم ، واليوم يتحكم في الغد ، ومهما نصنع لا ننج من عنعناتنا وتقاليدنا .

كان يردد هذا دائما ، ولكنه كان احيانا اذا استبد به الضجر ، اضاع الحذر فند عن لسانه مثل قوله :

ـ الى حيث القت ...

ثم يستدرك مسرعا :

ـ ولكن لا ... هذا مستحيل !

وأزعجني أن اصغي اليه وقلت في نفسي:

ـ اليك ايتها النفس هذا الرجل الذكي ، انه يعرف كل شيء، يعرف ما يجب ان يعرفه ويعرف ما يجب ان لا يعرفه ، وهو على الرغم من ذلك غير راض بعيشته ، وهو على الرغم من ذلك يخاف الحل البسيط ويهرب منه .

اما انا فقد وجدت هذا الحل وقبضت عليه بكلتا يدي : اذا سقط عصفور الجنـــة ـ وليس عصفورها الا الحريـــة الانسانية ـ في خيوط فخ من التفاهة والخرافة تـــكاد تخنقه وتزهق روحه، اذا سقط هذا العصفور في تلك الخيوط فما علينا الا ان نقطعها تقطيعا ونمزقها تمزيقا ثم نطلق ذلك العصفور .

وعرّضت بذلك امام الدكتور وألمحت اليه ، ألمحت اليه ان ليس هنالك وسيلة اخرى نحرر بها الانسان ، ولكني لم اصارحه برأيي ، خفت ان يهزأ بي ، او لعلي لم اصرح بذلك لامر آخر ... كنت

احترمه لانه يباسطني في الحديث وكنت اذا اغلظ لي لا ابالي .

ولقد كانت لكتبه واحاديثه فائدة واحدة على الاقل ، هي انها ذهبت رويداً رويداً بايماني ، وما اكثر ما يصبح المرء اصلع وهو لايدري ، ها هوذا يداعب قفاه ذات صباح ، وكان امس ذا شعر كثيف ، فاذا به ولا شعرة فيه . ولم يخفني ضياع هـذا الايمان ، ولكني شعرت في روحي ببرد قليل كريه ، لم يمتد زمناً طويلا ، فما اسرع ما فهمت اني طالما عشت على الارض وكأني اعيش في بلد غير بلدي ، وفوق ارض ليست ارضي . كنت ارى الكون كله من وراء الله ، كأنما اراه من قرارة بئر عميق ، أما الآن فقد بدت امامي فجأة رحاب عريضة واسعة وامتدت امامي آفـاق رحبة بعيدة ، واذا بي اشعر اني جريء الفكر ، وثابه ، واذا بي اطلب من الله اجازة دون ملل اسف ، وعلمت اخيراً ان ليس يؤمن بالله الا حثالة البشرية : الا اعداؤنا .

وجعلت منذ ذلك العهد اكتشف تلك العرى التي تشدني الى عمل غير عملي عروة عروة ، وما اكثر ما بذل الناس من عناية في سبيل اخفائها عني وتضليلي ، وعرفت عند ذلك ما في حياة الدكتور من تفاهة ومسكنة ومن قوقعة خارجية زائفة . اباطيل كثيرة : كتب واثاث وثياب ، انت تؤكد لي ان الاموز الخارقة فوق العادة يتطلبها جمال الحياة ، وانا اقول لك : اذا كنت حريصاً على هذا الجمال فامض بي الى الغابات ، واوغل في الحقول تجد الزهر وتجد الزرع وتنقـذ وجهك من الغبار وعينيك من القذى ، وتجد النجوم التي لا تحتاج الى مسحها بالخرق البالية ، بينما انت هنا تهتك ترهات الارض ارهاقاً

وترحم حياتك وتضطرك الى عمل حقير .

انك ايها الدكتور تقضي في اخذ زينتك ولبس ثيابك خمس دقائق ، ولكنك تقضي اكثر من هذا الوقت في ازرار اكمامك ورباط رقبتك ، انك تولج تلك ايلاجاً وتعقد هذا تعقيداً ، وتسب وتلعن كأنك فلاح . دع عنك ما يتطلبه حذاؤك ذو الازرار من جهد ووقت ، بينما تستطيع ان تنتعل حذاء روسياً بسيطاً دفعة واحدة ، أفهمت ؟

كل هذه الازرار والاربطة ، كل هذه الآلاف المؤلفة من الترهات والاباطيل ، كل ما في الحياة من تزاويق وبهارج يجب ان نحطمها وننقذ الانسان منها . أحط نفسك بكل ما هو متين مكين تصبح انت اكثر متانة واشد تمكناً ، اما الالاعيب واما التهاويل فيجب ان تكنسها كنساً .

وعرفت تذوق السادة لكل ما هو تافه في احاديث الدكتور ، هذا الرجل الذي يبدو لك مفكراً وحكيماً ثم هو لم يستطع انقاذ نفسه من هذه التوافه ، ولم يستطع ان يرى ان كل نوع من انواع السيادة يعتمد على الترهات : الكتب ، الألاعيب ، الآلات . . . ان الانسانية قد كبلتها قيود من الورق . وليس من مصلحة الدكتور ان يفهم هذا لانه هو نفسه شريك السادة في هذه السيطرة ، وهكذا كنت أجده اذا ضرب صرح الفساد الاجتماعي بفأسه ضربة او ضربتين اسرع فغطى موضع ضرباته بشبكة من الكلمات ، واسرع يردد ان علينا ان نكون اولي حذر واصحاب حيطة ، واننا لا نستطيع ان نصنع كل ما هو خير دفعة واحدة . انه انسان يحرق

نفسه بنار غضبه ، وينصب نفسه غرضاً لسهامه ، والحق أني أشفقت عليه في كثير من الاحيان .

ولم أنس اثناء تطوري الفكري حياتي الخاصة ، فدبرت أمري مع امرأة ، كانت ممرضة في المستشفى ، شقراء ذات عين واحـــدة خضراء ، اما عينها اليسرى فقد غمس فيها حبيبها ، وكان فراء ، ابرة ، ففقأها وسالت العين في نظافة لا بأس بها ، وهبط الجفن فغطى العين غطاء تاماً ، ولم يشوه هذا الحادث وجهها تشويهاً خاصاً ، وكان وجهها نحيفاً وانفها كبيراً بعض الكبر ، ولكنه لم يزعجني ، وكانت هذه الممرضة تعيش مغمضة العين ، صامتة ، عبوساً ، ومع ذلك فقد كان يرى الناس فيها امرأة عاهرة .

ملت اليها ، وألهبت عينها الصغيرة الخضراء دمي ، فكأنـه لم يلتهب ابداً ، وانت تراني اعرج ولكني مع ذلك قوي شديد ، وكان وجهي اكثر لطفاً ، وكانت النساء تطري عيني كثيراً ، بل ان ليويا نفسها قالت لي مرة :

ــ لك عينا فتاة يا يعقوب .

ولكن تاتانيا لم ترتضيني بادىء بدء فقلت لها :

ــ انت عوراء ، وانا اعرج ، فلنعش خليلين

ــ كلا ، لا اريد ، كفاني ما لقيت منكم يا معاشر الرجال .

وألهبني عنادها اكثر مما ألهبتني عينها ، وجعلت ادغدغ شغاف قلبها فلانت وظفرت بها ، وتقلبت منذ ذلك اليوم في ماء يغلي ويفور . كانت في دعابها شبقة شبقاً وحشياً ، شهوانية شهوة بهيمية ، فكأن حبها معركة ، وسرعان ما شعرت ان العمل الجنسي لا يلذها مثل

ما يلذها ان تمتص قواي امتصاصا ، وان تلقي بي نضواً هزيـــلا كالعود اليابس .

وكانت اذا لم تظفر بي غضبت وزادت شبقا وشهوة ، وسألتهـا ذات يوم وكانت صريحة مستقيمة :

ـــ اتخدعينني ؟

ـــ كلا

وسكتت قليلا مفكرة ثم قالت فجأة :

ـــ ولكن ... الا ترى ؟

ثم تابعت وكأنها تصفعني :

ـــ نعم .

وهممت بضربها ولكنها تنهدت ونظرت الي بعينهـــا الخضراء الوحيدة ، وكأنها تائبة من ذنب ، او كأن خيانتها أمر لا يتعلق بها وليس لها عليه سبيل ، ولقد تألمت ، فالحب صعب ، وربما اصابك مرض مخجل ، ومع ذلك فقد ارضتني صراحتها وسرعان ما رأيت ان روحها شقيقة لي ، وان ذكاءها غير نائم .

كانت شرسة ، اذا لمستها تأججت ، خبيثة يتفجر الخبث في كل كلمة من كلماتها ، وتلمع عينها لمعة شريرة حاقدة ، وسألتها مرة وهي في ساعة من ساعات لينها النادرة :

ـــ لماذا انت خبيثة هذا الخبث كله ؟ !

وعندئذ قصت علي قصة فوق العادة ، كانت يتيمة تسكن في منزل اختها ، وعندما بلغت السادسة عشرة من عمرها أزال بكارتها زوج اختها وهو سكران ، وتحملت عامين عارها خجـــلا وخوفا ، ثم

اكتشفت اختها علاقتها بزوجها فطردتها طرداً ، وخرجت من بيت اختها الى المواخير فعاشت مومسا ثلاث سنوات ، واشبعها الزبائن السكارى ذات يوم ضربا ولكما ، ودخلت المستشفى ورآها الدكتور فيه فقبلها ممرضة عنده ، واثار وجودهـــا في مستشفاه فضيحة وألح الناس في طردها ولكن الدكتور اصر على انقاذهـــا ورفض طلب الناس .

وسألتها :

ـــ ايضاجعك؟

ففتحت عينها وقالت ساخرة :

ـــ لسنا نصلح لمثل هذا الحيوان . انه لم يلمسني لمسا .

ـــ اذن فعلام تسخرين منه ؟ وكان عليك ان تشكريه .

ومصت شفتيها في غيظ وقالت :

ـــ سأشكره ذات يوم .

حقا لقد كانت امرأة نادرة ، وسنجدها مرة اخرى في قصتنا ، كانت ممشوقة القوام ، رشيقة كالسنجاب ، اذا برزت للناس أخذت زينة متواضعة فتبدو من اجل السيدات . نعم ان وجه ليوبا كان اكثر ظرفا ولطفا ولكن ليوبا سقيمة عليلة .

وعشت اجلو نفسي في لطف وهوادة ، والحرب يشتد أوارها في عنف وقسوة ، فهي تبتلع الناس كما يبتلع الموقد الحطب ، ودعي الدكتور الى الخدمة فقال لي :

ـــ والآن يا علبة المصارين ... هيا معي نرقع هؤلاء الاغبياء الذين يدمر بعضهم بعضا ...

ومضينا ومضت معنا تاتانيا وهي تدمدم :

ـــ يا لهم من اغبياء.. هيا اكسروا بنادقكم ومدافعكم وقطركم.. وصيحوا : خذوا عنا حربكم .

نحن نعرف انا لا نملك في الحرب حظاً ولا نظاماً ، وهكذا كانوا يقذفون بقطارنا من محطة الى محطة ، فنحن نتدحرج تدحرجاً ولا نعمل عملاً ، وغيوم من الجنود تمر امام اعيننا رمادية قاتمة ... كانوا يذهبون الى الحرب وهم يطربون ويغنون ، ويعود الذين يعودون منها وهم يصرخون ويئنون .

وغضب الدكتور وسود صفحات كثيرة ، وارسل برقيات وطلب عملا وقال لي :

ـــ ارأيت يا علبة الامعاء كيف يعاملون الشعب ؟

ثم لم يلبث ان اغبر وجهه ، وانتفخت اوداجه ، وشتم الناس جميعاً ، وسب السلطات والحرب والفوضى ، وعجبت من جرأته ومغامرته وقلت لتاتانيا :

ـــ ألا ترين كم يطلب عملا ؟

ودمدمت الخبيثة بين اسنانها وعينها مغمضة :

ـــ ذلك انه يطلب الاوسمة !

ـــ كلا . ان له دافعاً آخر اكثر نبلا .

كان يتحدث حديثاً معقولاً رزينا كما يتحدث الولد الصاحي عن والد سكير هو وارثه الشرعي ، وكان الموظفون في المحطة والجنود الذين يحرسون سكة الحديد ، وكل من في المحطة يصغون الى حديثه في ثقة وايمان ، حتى ان الدرك انفسهم اعترفوا ان الامور لا تسير

على ما يرام ، وحاولت ان انبه الدكتور وان اطلب اليه ان يكون اكثر حذراً وحيطة ، ولكني لم استطع الى ذلك سبيلا فقد كان عسيراً ان تقاربه ولو فعلت لنالتك لطمة او صفعة من هذا الذي يتميز غيظا .

وفجأة جاءنا عجوز صغير ، انه كلب نائم ، ذو صليب احمر على ساعده ومعطف احمر على زواياه ، ولعله مفتش ، وجعل يتخبط ويتقلب ويزعق بالدكتور :

ـ الى المحاكمة ... الى المحاكمة

وجعل الدكتور يولج اوراقه في انف العجوز ، وهو انف صرد ويهتف : وهذا ما هـــذا ؟

وانت تعلم ان الاوراق ليست عند السلطات قانونا نافذاً كما ان الايقونة ليست عند من يصورها ربا معبوداً ، وألقي القبض على الطبيب وقام الدرك بحراسته ، وعند ذلك رأيت تاتانيا صاحبتي تنقلب انقلابا وتخض المحطة خضا ، عند ذلك عرفت بسالة هذه المرأة وشجاعتها ، كانت تخاطب الناس جميعا وتلقى الناس جميعا ، ويسخر بها من يسخر :

ـ اذن فالطبيب عشيقك ؟ !

وسخروا مني ، واحسست اني لست على ما يرام . نعم اني لم ألاحظ انها كانت تحونني فتتصل بالطبيب ، ولكن هل من الممكن ان تراقب هذه الامور ؟ انها تجري في لطف وفي رفق ولا تستغرق الا دقيقة واحدة ، ثم ان ثياب النساء اكثر من ثياب الرجال يسراً وسهولة ، واكثر ملاءمة لمثل هذه الاعمال .

وقلت معزيا نفسي :

ــ لعلها انما تعترف بجميل الطبيب وتجهد نفسها في سبيله . ولست ادري كيف انتهت ثورة تاتانيا . لقد كانت الخوارق فوق العادة في ذلك العهد ترفرف فوق الارض كما ترفرف الغربان عند مغرب الشمس ، وكان درك المحطة لايعرفون ما يصنعون ، هاهم اولئك يهزون مسدساتهم ويهددون الناس باطلاق النار .. وبدأت طلائع الثورة في تلك الاثناء وشرع الجنود يهربون من ميادين القتال ...

وفجأة اكتسح المحطة قطار ليس له سائق . ولا ادري كيف استطاع ان يقف على بعد كيلومتر واحد ، وكان لا يحمل غير الجنود ، وجاؤوا من كل صوب يهرعون ، وجعلوا يطوفون ، واثاروا غباراً يستحيل علي ان اصف كثافته وسواده ، وخنقوا مدير المحطة وهم يصرخون في وجهه :

ــ نريد سائقا ، نريد سائقا

وضربوا فقتلوا دركيا عجوزاً ، كان خبيثا ، ودمروا كل شيء ، وقلبوا كل قائم ، وبعثروا كل مجتمع ، واخيراً اخذوا عامل الحوض ، ومضوا به الى قطارهم منتصرين .

وها نحن اولئك في المحطة بعد رحيلهم كنا في حريق: الزجاج يطقطق تحت اقدامنا ، والدكتور ، وقد اطلق سراحه ، يغمس يديه في جيبيه ، ويغمز بعينيه ، كأنه يستيقظ من نوم ، وانا اقول له :

ــ يجب ان نروح !

ــ اخرس ، واين نروح ؟

وامرنا ان نحمل الجرحى والقتلى ، ولم نكد نجمعهم حتى داهمنا

قطار آخر يدوي دوياً ، ويتفجر جنوداً مجانين ، ومضى في طريقه وجاء قطار ثالث ، وهكذا دواليك، وانقلبت الارض بالناس فما يدرون أقيام هم ام قعود ؟ وما اريد ان اقص عليك ما كان ،فانت تعلم تلك الزوبعة البشرية التي قامت قيامتها في ذلك العهد .

اما انا فقد فزعت فزعاً كفاني واغناني ما بقي لي من عمري ، وخاصة عندما اخذ الجنود قطارنا فيما اخذوا . وهرب المرضون والممرضات وحتى حملة الجنائز ولم يبق منا غير ثلاثة : انا والدكتور وتاتانيا ، وجن الموظفون في المحطة جنوناً ، والقطر تروح وتغدو دون هوادة ، والصرخات والزعقات تروح وتغدو معها دون هوادة، واذا هدأ الليل زاد الفزع وتفاقم الهول ، والمحطة صغيرة ، والمحطة منعزلة ، والغابات تطوقنا ، وفي احدى الزوايا قرية صغيرة للمهاجرين، اذا اشتعلت بها المصابيح خيل اليك انها عيون ذئاب. يا لهول ما رأينا! كنا نقضي ساعة او ساعتين يلفنا صمت اسود ، كأنا في قعر هاوية سحيقة ، واذا بنا نسمع من بعيد ازيزاً يقترب ، ودويا يشتد ، واذا بنا بعد لحظة نرى باعيننا جنديا كالوحش يدور ويلوب كأنما تسوقه الشياطين بعصاها الساحرة .

ومضت عشرة ايام ونحن نعاني هذه العاصفة . اما لم ثارت ؟فلست ادري ، كل ما كنت اعرفه اننا كنا نعنى بتسعة مرضى في المستشفى، فمات منهم اربعة ، وعاش منهم خمسة يؤلمهم الرعب اكثر مما يؤلمهم المرض ، والدكتور يقول للناس جميعا ان الثورة قد اندلعت نيرانها، وان السلطة الحاكمة سيمالها التغيير ، وانا افكر في هذا التغيير واقول:

ـــ اذن فهنالك قيد جديد يصوغونه ليشقى به الناس .

وتركزت هذه الفكرة في ذهني حتى اصبحت كالصخرة ، اما تاتانيافكانت تصغي الى الدكتور في لهفة وعنف. وحدث في ذلك الحين حدث صغير : كنت اقترب من مهجع الدرك وكان المرضى يحتلونه ، فسمعت تاتانيا تقول :

ـــ أأنت متقزز مني ؟

وتطلعت من النافذة فرأيتها واقفة امام الدكتور كأنها وتر مشدود ، اما هو فجالس يدخن ويزمزم وينظر الى قدمي تاتانيا ويقول لها :

ـــ اذهبي ... اذهبي ...

وخرجت العوراء الى الدرج ،ومسحت يديها بذيل ثوبها ثم صرخت :

ـــ لا ضرورة لبقائنا هنا

وضحكت وقلت :

ـــ ذلك اكيد

وراقبتها عن كثب . وحاولت ان افجأها مع الدكتور . ولو فجأتها لضربتها فطالما زهت علي وتكبرت وافتخرت بما لقيت في حياتها الماضية من مآس وحوادث ، ولكن المناسبة لم تسعدني، ولم أشأ ان اضربها هكذا دون سبب . وقلت : كفاني ما كان .

واستأذنا الدكتور بالرحيل فأذن لنا ومضينا في طريقنا سيراً على الاقدام،ذلك ان تاتانيا لم ترغب في ركوب القطار وهي تعرف ان مثلها عند الجنود مثل شحم الخنزير عند الفئران .

سايرنا الخط الحديدي ، وكنا ندخل القرى في طريقنا فتطعمنا

وتسقينا . حقاً ان الانسان ليستطيع أن يعيش . كان الفلاحون يهبون من نومهم وتفتح اليقظة عيونهم، ويتلهفون الى اكتناه المستقبل. وتاتانيا ترد كلمات الدكتور . وانا اقول لهذا او لذاك في هذه المناسبة او في تلك :

ـ لنتفق على جعل الحياة بسيطة . أسمعتم ؟ ان قوى السادة تضعف وتخور ، وهم لا يعرفون كيف تدبر الحروب ، ونحن لا تخضعنا قواهم بقدر ما تخضعنا افكارهم واباطيلهم . لقد دقت الساعة ... وحصحص الحق .

كنا نستريح ثم نستأنف رحلتنا ونستأنف دعوتنا ، وشعرت ان تاتانيا ما تزال ناقمة على الدكتور رغم انها آمنت بكلماته وايقنت ان الثورة عيد من الاعياد .

وقلت لها :

ـ تذكري أيتها البلهاء الصغيرة أمراً واحداً . ان السادة لا يقدرون على الحياة دون خدم ...

وكانت تزمجر وتأبى ان تصغي الى قولي .

واخيراً ركبنا قطاراً هادئاً وبلغنا (تشيتا) ، كانت العاصفة تتمخض ثم تنفجر في الشوارع ، وفي الساحة العامة ، والشعب يتلوى كما تتلوى في السلة السراطين .

والصينيون يسندون ظهورهم الى الحيطان ويسخرون، اما وقد مر ذكر الصيني فاسمع رأيي فيه : انه ذكي ، يقول لكل انسان أنت مصيب ، ولكنه لا يؤمن باحد ، عبثاً تحاول ان تلاعب صينياً بالقمار . انه الرابح دائماً .

وتاتانيا مسرورة فرحة ، وعينها الخضراء براقة لامعة ، واسنانها الصغيرة تبدو للناس وهي تصرخ بهم :

ـــ كفانا ذلا ... كفانا هواناً ...

واراها فاضحك على الطريقة العينية ، ماذا يعنيني ان يذهب بعض البيادق الى الفرازين ؟

وجعلت أبيع الصحف والجول والاحظ ، وعرفت ولداً كان سجيناً سياسياً ، ثم استطاع الفرار . كان قويا شديد القوة ، طويل الذراعين ، ومع ذلك فقد كانت مهنته تستدعي الضحك ، فهل ظننت انه كان ساعاتيا ؟ كان من تلك (السلطة) التي استولت على الحكم في المدينة ، وكان يرى ان الثورة هي الخطوة الاولى في طريق الحرية . وقلت له :

ـــ أمامك خطى كثيرة فسر واسرع ، ولا يلهينك هذا النصر الموقت ، ولا يأخذنك الفرح اذا جلست في مجلس « الدوما » الى جانب ساوتنا

ويعدني الوعود ويقول :

ـــ مهلا ... مهلا ... سنسير في طريقنا ونسير . كان طيباً وكان ساذجاً ، ولكنه سرعان ما يؤمن بالاحزاب ، وما الاحزاب ؟ هناك حزب العمال وحزب الفلاحين ، واحزاب بورجوازية كثيرة ، ولكنها جميعاً لا تعمل في سبيل الشعب ، بل تعمل ضد القيصر . اما اليوم فقد اصبح حزبنا وحده هو الذي يمشي في الصراط المستقيم .

وبدأت ابادة الشعب ابادة وحشية منظمة ، فقد وصل المدينة ضابط يقود جنوداً ، فانهارت الثورة واستحالت الى تراب ...

قال لي الدكتور ذات يوم : ان المجازر في بطرسبورج قائمة على قدم وساق ، والشعب يباد في شوارعها ويذبح ذبح النعاج .

ولم اصدقه ، وظننتها احدى اباطيله ، اما الآن ، وبعد ان رأيت ما فعل الجيش في تشيتا فقد صدقته . كانوا يسحقون الناس كما يسحقون الجوز ، ويقتلونهم حيث ثقفوهم ، دون نقاش ، ويلحون على ذبحهم ذبحاً لايصدر الا عن ذعر شديد ، وهذا الذعر باد على الوجوه جميعاً ، وجوه الجند ووجوه الشعب . ويخيل اليك عند اول نظرة ان عيون الناس اصبحت من زجاج ، انها عيون عميان ، او عيون موتى ، فاذا انعمت النظر رأيتها ترتجف .

كان لصاحبي الساعاتي صديق يدعى « بيير » وهو ولد جريء ملاح هرب مثله من معتقله ، وكانت يده اليسرى ذات ست اصابع ، وارادت الشرطـــة قتله فافتدى نفسه بسبعة عشر روبلاً ، فعاد يقول لنا :

ــ تأملوا قليلا ايها الرفاق : اننا ندمر كل شيء قولا ، ولكننا نستحيي من قتل فأرة فعلا ، اما هذا القائد .. لو قتلنا رجلا واحداً لتألمنا وندمنا ، اما هم فيقتلوننا كما يقتل اليابانيون السمك .

ولقد كان هذا القول صحيحاً ، وانا الذي رأيت ما بين اقوال الثائرين وافعالهم من فرق ، وعلمني العهد الذي قضيته في تشيتا فأحسن تعليمي ، رأيت اشياء كثيرة ، وفكرت في امور كثيرة ، وازدادت افـكاري رسوخاً وتمكناً .

ونجوت من الموت بأعجوبة ، ألقي القبض علي وعلى الساعاتي وساقونا الى ساحة الاعدام ، وفجأة نظر الي وكيل الضابط وسألني :

ـــ يا أعرج ! من اين انت ؟ ألست من برناؤول ؟

وقال للجنود :

ـــ خلوا سبيله فأنا اعرفه ... انه ابله وكان حوذيا عند الدكتور

وسررت بالنجاة وقلت مازحا :

ـــ وعلام تقتلون الاغبياء ؟ ! اذبحوا الاذكياء وحدهم كيلا يفسدوا علينا حياتنا .

ودفعني وكيل الضابط في درب صغير وهو يصرخ :

ـــ سر في طريقك يا بن الكلب ، واشكر الله على ما في نفوسنا من صلاح .

ونجوت ، وسيق الساعاتي فأعدم رميا بالرصاص . ورأته تاتانيا هناك يتمدد على صدر التراب ، ووجهه لايزال يفيض بالحياة ،ويمور بالنشاط ، وفي يده قبضة من تراب وطنه ، ولكنهم ذهبوا بحذائه .

وهجرت تاتانيا، فقد نفر أنفها الكبير افكاراً سياسية من صاحبها الملاح ، وشرعت تلقي علي دروساً ، ولست ممن يألف الدروس . ان اولئك الذين تهمهم السياسة لا يساوون كبير شيء ، فالسياسة تفكك ذكاءهم وتخلعه ، فاذا بهم لايفهمون الحياة في مغزاها البعيد، اما انا فكنت ارى الانسان في اعماق نفسه ، واسبر غوره واقول : عقلنا وحده هو الحكم الفصل ، والقاضي الصادق ، اما السياسة فتسيطر على هذا العقل وتبطش به . رأيت كثيراً من افراد الحزب يناضلون ولكنهم جميعاً كانوا يستهدفون غاية واحدة : ان يبرز كل منهم اكثر ذكاء من سائر الافراد .

وقالت لي تاتانيا ذات يوم :

ـــ انا اعرف ما افعل ، ولست اهلا لمعرفة ما تفعل . انت تملأ السماء بالدخان ، ولا تريد ان ترى في الارض غيرك .

وكرهتها كرهاً عنيفاً فتركتها واشتغلت حارساً في محطة ذات اسم مضحك ، كأنما هو ام شاحوط .

عشت وراقبت : الناس يطرقون رؤوسهم وهم يائسون وانا اتغابى واصطنع البلاهة واشتغل في وجدان ، واطلب رضا الناس جميعاً واردد كلماتي الحمقاء :

يجب ان نسوي بين الناس ، يجب ان نجعل الحيـــاة بسيطة . والناس يسمعون كلماتي ويفهمونها ، وانا اتحدث في جرأة حتى امام الدركي ، وكان هذا الدركي روسياً صغيراً يدعى كيريانكو ، ضخم الجثة ، له خرطوم السلور وشارب الصيني ، وكان ابله حقاً .

كان يدحرج عينيه ، ويصغي ، ويمخط ويبصق ، فاذا جاء الليل ـــ وكنت حارس ليل ـــ اتاني يلقي علي نصائحه :

ـــ ستؤدي بك اقوالك الى الاعدام . هذا كلام الثوار .

واجيبه في سذاجة :

ـــ اسمع يا اوسيب ابجوريفتش. ان الثوار ليسوا معلمين للبسطاء من الناس ، ولكنهم لهم اعداء . انهم يبحثون عن السلطة ، اما نحن فنبحث عن حرية الروح .

ويمخط كيريانكو ويقول :

ـــ يسرني ان اسمع منك هـــذا الحديث ، ولكن كن اكثر حذراً . انت بريء مسكين ولكن اصحابنا لا يرون ما ترى ، اما انا فأرى ان في حديثك وحي الانجيل ، وليس الانجيل في مثل هذه

الظروف اقل خطراً .

●

واصبح كيريانكو لي صديقاً طيباً . ونفعتني صداقتـــه ، فقد كانت كلماتي تنفذ الى قلوب الناس ، فهرعوا يتوافـــدون الي من المحطات ويستمعون ، وجاء معهم آخرون يريدون ان يعلموني ، ويعرضون عليّ ان ادخل في صفوف الحزب . وكنت اصطنع مع هذه الزمرة من الوفود غباء ابذل في سبيله كل ما في عقلي من قوة ، فلا يلقون مني غير النفور ، وكيريانكو يقول لي حيناً بعد حين :

ــ انتبه وخذ حذرك .

كان من الممكن ان تطول بي الحياة على هـــذا النمط هادئة مطمئنة ، لولا ان الشيطان ألقى في طريقي بمشحم القطر « سيمون كورناشيف »، شعر أجعـد ، وشدق مرقش كأنه شدق دهان ، يرقص ويعزف ويهرج . ولكنه كان متفتح القلب والعقل . وسرعان ما اعتنق مبادئي وآمن بها . ولكن بعض الناس دفعوه الى الشر دفعاً .

وفي ليلة من ليالي الربيع سمعت : بم بم الطلقات تدوي من وراء المحطة، وهرعت الى هناك ولكن في بطء وهوادة : ليس يجدي المرء ان يصل الى الحادث اول الناس . ورأيت سيمون يركض الى الصهريج . وظننت انه ليس من اطلق النار . وان النار قد اطلقت عليه . واجتمع الناس يصرخون :

ــ قتل كيريانكو .

كان كيريانكو ممدداً على قارعة الطريق ، ورأسه في السياج ، وذراعاه امام رأسه . وتراكض الموظفون وشرع بعضهم ينصح

بعضاً :

ـــ لا تمسوه .. لا تمسوه ..

وركض ايضاً سيمون يحمل بيده مطرقة . وجعل يردد اكثر من الناس جميعا ولا يقف عن الترداد :

ـــ كنت عند الصهريج ، وفجأة سمعت صوت الطلق الناري . كنت عند الصهريج .

وقلت في نفسي عندئذ :

ـــ اذن فانت القاتل ، ايها الجرذ الوقح !

وجاء الدركي الثاني ، وهو العجوز فاسيلييف يصرخ :

ـــ وجدت المسدس . رائحته نفط . تذكروا : رائحته ...

وشم الناس المسدس وشمـــه معهم سيمون ودمدم :

ـــ حقا ... ان رائحته نفط

كان سيمون يقول ذلك وفاسيلييف يصارحه :

ـــ عندنا اثنان فقط يلوثهما النفط... انت وميكيفتش ، ولذلك فأنتما متهمان ...

يا للعجوز ما أحمقـــه . لو كان اخرس لكان ذلك خيراً له . واعلنت اني رأيت سيمون عند الصهريج حين دوى الرصاص . فلقد اشفقت على الفتى ، ولكن فاسيلييف ظل يصيح :

ـــ المهم في القضية النفط والشحم . وانت ايضا يا يعقوب متهم ، لذلك فانا ألقي عليك القبض . انك حارس مسئول ...

فجأة قفز سيمون قفزة فكان وراء العجوز ، وكال له ضربة على قفاه بكل قواه ، فخر العجوز ولم يقل : آه . وقبضوا على سيمون

واوثقوه بالحبال وصنعوا بي وبميكيفتش كما صنعوا به ، وألقونا في غيابة قاطرة من قاطرات الدرجة الثالثة تحت حراسة رجال يتنزهون تحت النوافذ وبأيديهم هراواتهم

وبكى ميكيفتش ، ونشج نشيجا ثم نام . ووشوشت في اذن سيمون :

ـ ولم فعلتها يا ابله ؟

ولم يرغب في الكلام وجعل يتنحب ، ثم قهرته وها هو ذا يسر الي ان قد دفعته جماعة من الحزب ، لان كيريانكو وشى بأسماء الذين يزورونني . وطمأنت الفتى ، لان لي ضلعا في القضية ، واقنعته بضرورة الكتمان .

في ذلك العهد كان القضاة قساة كما كانت الحياة : دبروا امركم وهاتوا لنا مجرما . المهم ان تأتوا به . وحكم على الفتى بالموت شنقا ، رغم اني اصررت على تأكيد براءته وعلى اني رأيته عند الصهريج ، ولكن الضابط المحقق ردني وهو يقول :

ـ لقد اجمع الناس على ان هذا الحارس نصف مجنون ، نحن لا نستطيع ان نثق بما يقول .

ولم يحاكم ميكيفتش ، واطلقوا سراحه ، واطلقوني ، فتعجب اصدقائي وقالوا :

ـ انك لتتغابى تغابياً ظننا انه سيقود الى سحقك . وطردت من المحطة طبعاً ورحت بعدها اطوف في البلاد واعيش كما يعيش النوري: فأنا طوراً في الاورال وطوراً على ضفاف الفولغا ، ومرتين في موسكو ومرة في ريازن ، وآونة ابحر في نهر اوكا نوتياً على ظهر مركب ،

ورأيت فيما رأيت تلك « السافاتما » المشهورة : بلد صغير لا يسوى شروى نقير .

عشت ولاحظت ، ولكن نفسي بقيت قلقة ترتقب في عنـــاد واصرار شيئاً مالا بد ان يحدث .

وكنت ذات شتاء حوذياً في ريازن ، وفجأة شعرت اني اهوي في الفراغ . لقد رأيت راهبة : انها ليوبا .

اوقفت حصاني وصرخت : ليوبا ... ليوبا !

ولكن لا ... ليست هذه الراهبة ليوبا ، وكأنما قـذف بي في ماء يغلي .. ليس بينهما وجه من الشبه : وجه هذه الراهبة خرقة بالية ، وعيناها نائمتان .

وها أنذا بعد هذه الخيبة المريرة اصبح اكثر سأماً واشد مللا ، واطلب العودة الى سيبيريا .

وجدتني في آخر الربيع في « تومسك » فيممت شطر المستشفى ، وكان صاحبنـــا الدكتور الكسندر سيريللوفتش اول من لقيت ، وسررت به على الرغم من اني لا احب ابداً ان القى مرة اخرى الناس الذين عرفتهم من قبل . ان على وجوههم سيماء من يقول لك :

ــ انك تدور ثم تدور في حلقة مفرغة ثم تعود الينا .

ورأيت الطبيب ابيض الشعر ، اصفر الوجه ، ذهبي الاسنان ، وفرح بي ، وضغط على يدي وهو يصافحني ، وربت على كتفي كأني صديق حميم وقال لي وهو يمزح كالعادة :

ــ والآن اخبرني يا علبة المصارين ، هل استطعت ان تقضي على كثير مما وجدت من امور فوق العـــادة ؟

واعادني إلى عملي ، وها انذا من جديد ادير عيادته ! كان يسكن جناحاً صغيراً في المستشفى تطل نوافذه على البستان ، فيه غرفتان ومطبخ ، وها انذا من جديد اعود فاقص عليه ما رأيت كما تقص الجدة العجوز الاساطير على حفيدها . وكنت وانا اتكلم اصغي الى كلامي : ألا إن هذا لأمر لذيذ

ورأيتني فجأة افهم كل شيء . ان الافكار الصحيحة لتأتيك بغتة من حيث لا تنتظر ، فاذا انت على بصيرة من امرك ، وقد حدث لي ذلك في احد الملاعب ، وكنت طالما زرته لاتفرج على المتصارعين ، ولقد ادهشني منهم مصارع من فنلندا . لم يكن كثير القوة ، ولم يكن ضخم الجسم ، ومع ذلك فطالما صرع رجالا اكثر منه قوة واثقل منه وزناً ، كان يتصرع عليهم بمهارة غير عادية ، وبدقة فنية .

رأيته يوماً يدور حول مصارع روسي ضخم ، وفجأة فهمت وانا استيقظ من نوم عميق

المعرفة : تلك هي البهتان المبين الذي يواري كل ما في الحياة من شر ومن باطل

وتصببت عرقاً ، وقفّت عظامي ، وهي تتنفض وترتجف . سر الروح ، ومفتاح الحياة في هاتين الكلمتين :

« المعرفة »

ان الضعيف يغلب القوي بمعرفته ، وان الشعب يحرم بالمعرفة من حريته ، رأيتها في وضوح يعمي البصر مصدر كل ما هو فوق العادة ، ومبدأ كل ما يفرق بين الناس ، اذن فأما منا احد امرين : إما ان

يعرف الناس جميعاً معرفة متساوية ، واما ان يحرم الناس جميعاً من المعرفة .

لا ازال اذكر اني دخلت البيت بعد هذا الكشف ، وانا في حذر حذر حتى كأني احمل فوق رأسي سلة من بيض ، وفي نشوة غامرة حتى كأني سكران .

ومن الناس الذين يزورون الدكتور جماعة كانت تتحدث في السياسة دون ان يؤذيهـــا وجودي ، وكنت بذلك فخوراً . ومن هؤلاء الناس شيخ داهية ابيض ذو عوينات ، احدب الظهر ، غليظ العنق ، يدير رأسه وجسده معاً كالذئب ، ويرن في صوته نباح الجوع والبرد ، كان يقدم من المحطة حاملا حقيبة صغيرة ، ويفرك يديـــه وجمجمته ولحيته ثم يناقش الناس الحساب :

ـــ هيا ! كيف الاحوال ؟

وها هوهذا يقدم في ليلة من ليالي الصيف هو وحقيبته الصغيرة ، مقدماً مخففاً مدخناً كأنما قذف به الفرن من قريب ، وها هوذا يضع حقيبته على الارض ويحيينا قائلا :

ـــ الحرب قريبة .

والحق أن حماقتنا الانسانية قـــد انبعجت مرة اخرى ، وأنا طبخنا الحرب من جديد ، وبدأ النفير العام ، وقرعت الاجراس والنواقيس ، وقال الناس للخراب أهلاً بك ، وغمز الدكتور بعينه وقال لي :

ـــ أرأيت بإعلبة المصارين ؟ ! هذه بساطة الحياة !

ولقد هدني الأسى واستنزف قواي ، ليس في الناس واحد يدرك

أية فائدة في الحرب ، ولكنهم مع ذلك يحاربون . نعم ان العجوز قد بين للدكتور ان الحرب الجديدة منتهية حتماً الى الثورة،ولكن هل تحمل الي هذه الثورة شيئاً من العزاء ؟ لقد رأيت قبلها ثورة اخرى ملأت الارض مآسي ومجازر ، ولكنها لم تحمل الينا بارقة خير ، بل انها حملت الينا على عكس ذلك كثيراً من الشر .

ودعي الدكتور الى الخدمة العسكرية ، وقد صعقته هذه الحرب كما صعقتني ، وقال للذئب العجوز :

ــ لو أطلقت على رأسي رصاصة كان ذلك أشرف لي .

والعجوز يردد قوله :

ــ الهزيمة واقعة حتماً بعد ثلاثة اشهر ، والثورة واقعة حتماً بعد الهزيمة .

لا اريد أن احدثك عن تلك الحرب : خليط بابلي ، غليان جنوني ، الفلاحون في سيبيريا يساقون الى روسيا ألوفاً ألوفاً ، ويحل محلهم ألوف وألوف من أمم وشعوب أعرف انا بعضها كالتشيك والمجر والالمان ، ويعرف الشيطان سائرها ، خليط بابلي ، وطواعين وانين ، وبرك من الدماء ، ونساء كالوحوش ، وانا والحق اقول لك، خائف من هذا الهول كله .

كان الطبيب ينتقل من مدينة الى مدينة ، ومن معسكر الى معسكر ،ليعنى بالاسرى ، وعلى رغم اعفائه لي من العمل لم اجرؤ على تركه . كان انساناً كاملاً ، لا ينام الليل ، ولا يجد وقتاً للطعام ، وعجبت لامره : ما له يبذل كل هذا الجهد ، ويعاني كل هذا القلق ؟ أي خير جلب له الناس ؟ ولم يعنى بهم كل هذه العناية؟ وهم

فوق ذلك اجانب وغرباء لا تربطه بهم وشيجة قرابة ولا نسب. انه لا ينتظر ترفيعاً ولا يطلب وساماً ، ورؤساؤه يمزقونه ارباً ارباً . واليك الآن حادثاً من حوادثه :

جاء الجند بعدد من الاسرى فألقوا بهم في زاوية ثم نسوهم ،واتانا المشرف عليهم يشكو موت رجاله برداً وجوعاً ، وامر الدكتور حراس المحطة ان يفصلوا من اول قطار شاحنتين تحملان دقيقاً وخشباً ثم وزع ما فيهما على الاسرى ، واحيل الى المحاكمة ، واجل الحكم الى نهاية الحرب . كان يخرق القوانين في غضب حرصا على العناية بالناس .

لقيت تاتانيا في بلدة « تومسين »، كانت تحوم حول الاسرى ، تأتزر ثياب ممرضات الصليب الاحمر ، وعلى انفها عوينات سود ، لقد سمنت واصلحت من هندامها، وقالت لي انها تعلمت مهنة الممرضة قبل الحرب .

وسخر الدكتور طبعاً من رأيي الجديد في المعرفة كما سخر من قبل من رأيي في البساطة ، وكان يقول :

ــ المعرفة ! أليس كذلك يا يعقوب؟ اترى اثراً لبساطة الحياة؟ اترى لها اثراً ؟

والواقع اني في ذلك العهد قد تزلزلت افكاري ، وغطى القتام عقلي ، وكأن هذه الرحى الشيطانية همت ان تقف عن الطحن .

وكنا في محطة على طريق « توبولسك » فوصلت الى الطبيب برقية قرأها ثم فركها وأصبح ممتقع اللون، وقال لي وهو يدغدغ حنجرته :

ــ يا يعقوب خلع القيصر عن العرش .

وهزني هذا الخبر هزاً : لم افكر في القيصر تفكيراً جدياً . نعم لقد رددت كثيراً انّ الشر كله في القيصر ، ولكني لم اكن مؤمناً بما اقول ، بل لقد كنت ارى الشر في كل مكان ، وها انذا اسأل نفسي :

ـ هل كان القيصر حقاً قائماً على رأس كل سلطة في الدولة ؟ ! اذا كان ذلك كذلك فهذا الرأس قد قُطع .

اضطرب الدكتور ، وكاد مساعده او كونيف يرقص ، ورأيت الناس جميعاً يبتهجون ويفرحون ، أترانا وصلنا الى غايتنا ؟ أترانا تحررنا من قيودنا ؟

نعم لقد كان ذلك حقاً ، ها هو ذا الشعب يلتف على نفسه كما يتكور الثعبان ، ويلتصق بالارض كما يلتصق الفتى الشبق بالفتاة ، ورأيته لا يريد ان تتكرر المأساة التي حدثت منذ عشر سنوات ، كلا ! ثم كلا !

الرجال يهربون من جبهة القتال دون ان يفقدوا صوابهم ، بل هم على عكس ذلك ينصرفون في نظام وقد حملوا بنادقهم بل ورشاشاتهم ومعداتهم . كانوا قبل كل شيء يفهمون ما يقوله الناس ويرددون :

ـ نعم ... نعم ... ان هذا لهو الحق المبين ، كفانا ما لقينا من هوان ، لقد طفح الكيل .

اما انا فقد تكلمت في تلك السنة وحدها اكثر مما تكلمت خلال ثلاث واربعين سنة كاملة . كان في صدري جرس يرن ثم لا ينقطع عن الرنين ، وشعرت بالفرحة الكبرى تعمر تلك السنة الخالدة ، ورأيت الناس يعجبون بي ويجلونني اجلالاً كبيراً .

المسافات في سيبيريا شاسعة واسعة ، والقرى متفرقة متباعدة ، ليست كما ترى في هذه البلاد حيث تدفع القرية القرية بمرفقها دفعاً ، وتغص بالشوارع والطرق ، وحيث تجد في كل عشرة فراسخ بلدة ، وفي كل مئة مدينة .

وفارقت الدكتور فقد ارسلوه الى « اركوتسك » وعشت في ضيعة قريبة من « نيقولايفسك » .

وفجأة داهمت الضيعة كوكبة من الفرسان ، وجعلت تصدر الاوامر :

ـ هيا الى الحرب بلغا هيا الى الحرب .

ـ ولكن من نحارب ؟ ولماذا نحارب ؟

ـ وقال ضابط ذو شعر جعد ، وجبهة عريضة :

ـ نحارب موسكو ، لقد استولى اجراء الالمان على الحكم فيها .

ـ وتحدثنا حديثاً طويلاً يدل على ذكاء وادراك ، ولكن الفلاحين تردّدوا في تصديقه ، وفي سيبيريا لا يحب الناس موسكو .

ـ وقد تشكى الفلاحون وتململوا قليلاً ثم سافروا .

ـ ومع ذلك فقد استطعت أن أقنع عشرين منهم بالبقاء ، وقلت لهم :

ـ هذه حرب لا تفهم لها مغزى ، ولا نعرف من اوقد نارها ، فتعالوا نهرب الى الغابات ايها الفتيان ، وننتظر هناك ، حتى تتبين لنا جبهة السادة وجبهة الشعب .

وجاء فتيان من اقصى المدينة يسعيان كأنهما هبطا من الغيوم ، ويقولان :

ـ ان هذه الحرب التي تدعون اليها حرب على الشعب ، انكم

تساقون الى حفر قبوركم بأيديكم . لم تمت الافعى فهي الآن ترفع رأسها . ايدوا موسكو ايها الفلاحون ، ان اولي الامر فيهـــا هم اصحاب التفكير الشريف الصحيح .

سيروا وراء البلاشفة ، واضربوا قفا السادة المستبدين . ذلك هو واجبكم .

كان حديثهما ممتازاً ، وفرح بي الفلاحون لاني قلت ماقاله هذان الفتيان ، وفكرت كما فكرا ، وقالوا لي :

ــ ان رأسك نافع لنا فابق عندنا .

وجعل الكولتشاك يحصدون القرى والفلاحين حصداً: المصادرات والنهب ، وسرقة الحبوب والعلف ، وسوق البهائم والماشية ، وترامى الينا ان الفلاحين قد هبوا يدافعون عن اموالهم وانفسهم ، وان العمال يؤيدونهم في هذا الدفاع.

وجاءتنا فصيلة من العمال لا يتجاوز عددها تسعة فرسان عـــلى رأسهم سائق يدعى « افكوف » وكان شاباً اسود جاف العود طويلا ، اذا امتطى صهوة حصانه مست الارض رجلاه ، وطلبوا منا تأييدهم في حرب الناهبين وهم اربعون فارسا ينهبون قرية لا تبعد عنا اكثر من ثلاثين فرسخا . وهب سكان القرية وهم الذين طالما لقوا اصناف النهب والسلب فجمعوا سبعة وستين مسلحا اكثرهم من الجنود القدماء وفيهم بعض الشيوخ ومضوا الى القتال ، ولم يعجبني هذا الامر ، ومـــع ذلك فقد تنكبت بندقيتي وسرت ...

بلغنا القرية عند منبلج الصباح ، وخضنا المعركة : لم تكن معركة دامية ، فقد قتلنا ثلاثة وجرحنا خمسة او ستة ، وفقدنا نحن قتيـــلا

واحداً ، ووقع آخر منا في بئر فغرق ، ومس الرصاص اربعة منا مساً غير ذي خطر ، وكنت واحـــداً من هؤلاء فقد اخترقت الرصاصة لحم كتفي .

كنت لا اعرف الرماية ، ولا استخدم البندقية ، بل انا لم اصطد في حياتي عصفوراً ، ولكني مع ذلك فعلت كما يفعل الآخرون . والحق ان البندقية آلة عجيبة : خذها ثم صوبها تنطلق وحدها .

وملأ النصر الفلاحين تيهاً وفخراً ، وعادوا الى قريتهم يصمون آذان البرية هزجاً وغناء ، ولكنا لم نكد نبلغ القرية حتى رأينا فيها جماعة من الكولتشاك يعبثون بها ويرتعون ، ورأينا النار تضطرم في موضعين من القرية ، وسمعنا ولولة النساء وعويل الاطفال . وعندئذ ظهر لنا « افكوف » محارباً ماهراً : قسمنا فريقين ثم حاصر القرية ، وهبطنا على العدو على حين غرة ، وكانت معركة دامية : اما القتلى فكانوا سبعة وثلاثين ، منا ومنهم ، وغنمنا مدفعاً ورشاشين وكمية من الذخائر من كل نوع ، وانضم الينا من الكولتشاك احدعشر فارساً . واجمعنا امرنا على الانسحاب الى الغابات والاستعداد للحرب ، ومضينا اليها ونحن سبعة وخمسون فعشنا في الهواء الطلق ، وذبحنا الناس ، وغنينا الاغاني .

لكل نمط من انماط الحياة عيوبه ، وهكذا كانت حياتنا . لقد ألفنا العيش المتشرد في الغابات والبراري واصبحنا كسالى . كنا نلبس ثيابا بالية ملأى بالثقوب ، ولكنا لم نرغب في ترقيعها ابداً ، فاذا لم يبق سبيل الى لبسها غنمنا ثياب ميت ، ولكن الميت نفسه لم يكن يرتدي ثياب السادة .

لم أكن محاربا ، ومع ذلك فقد غامرت . كنت أتعلم الرماية وفنون الحرب في كثير من الشوق واللهفة ، وأنا أعلم ان الحرب عمل بهيمي باهظ الثمن . المهم في الحرب اطلاق اكبر كمية ممكنة من الرصاص . مئات من الطلقات في سبيل عشرة قتلى ، والذين يبقون احياء يولون الادبار لعبء والحرب فوق ذلك عمل مؤذ لانها تفسخ اخلاق الرجال .

كان في فصيلنا فتى يدعى « بيير » افسدته الحرب وشوهته ، كان اذا وقع في قبضتنا بعض الاسرى ما يزال يزعجنا حتى نقضي عليهم . كان يطلب من « افكوف » ان يسمح له برميهم ، فتلتمع عيناه الصغيرتان ، ويحمر وجهه . كان ظريف الملامح ، حلو المظهر ، وكان افكوف يمنعه من قتل الاسرى ، ولكنه كان يقتلهم ويبرر عمله قائلا :

ثم لم أتعمد قتلهم ابدا

او يقول :

رأيته جريحا ، لا مفر من موته

اما افكوف قائدنا فكان سوداوي المزاج ، متوقد الذكاء ، يحب البحر فقد كان نوتيا على ظهر مركب حربي ، ثم نفي فاشتغل ملاحا في نهر « آمور » . كان شجاعا ولكن شجاعته كما عرفنا بعد ذلك راجعة الى جهله بفنون الحرب . كان يمضي الى المعركة ممتطيا صهوة جواده امام الجنود جميعا يزهو بتدفقه كما يزهو الفارس برمحه ثم يكيل الشتائم المخيفة والرصاص ينهال عليه من كل جانب . ولم يكن يشفق على الناس :

ـ الشرفاء من الناس يسكنون البحر ، اما الاوغاد وحدهم فيسكنون البر .

كان كثير الصمت ، كثير الانين ، مصابا بوجع في ظهره لعله من اثر ما لقي في سجنه من ضرب وعذاب . كنا اذا غنمنا الاسرى ارسلهم الي وقال لي :

ـ يا صاحبي يا زيف كنياجيف اقنعهم بالانضمام الينا فاذا رفضوا فهددهم بالقتل .

وظفرت مرة طليعة من طلائع الاستكشاف بخمسة فرسان ، ناقشني واحد منهم ، كان جريح الرأس والذراع ، نقاشا اعجبني وعلمت انه ليس من عمار الناس فسألته :

ـ اوانت سيد ؟

واعترف انه ضابط برتبة ملازم ، وان اباه علاوة على ذلك خوري ، وقلت له :

ـ سيقتلونك

كان متعجرفا ، قوي البنيان ، جدي التعابير ، مفعما بالقوة ، دافع عن نفسه عند اسره دفاعا مجيدا ، اما نظرته فكانت نافذة طيبة على الرغم مما فيها من اسى عميق . واجابني :

ـ نعم ... يجب عليهم ان يقتلوني . هكذا الحرب بلا رحمة ولا شفقة .

واشفقت عليه وحدثته طويلا ، واصررت على اقناعه بالانضمام الينا ، اما هو فكان لا يكف عن شتمنا عامة وعن سب قائدنا الكولف خاصة ، وعلمنا انه اوفد في مهمة هي القبض على الكولف وعصابته .

قال لي :

ـــ ان قائدكم غبي وسيقضي عليكم جميعا .

وكان يعرف كيف يثبت بالارقام ان افكوف لايعرف توفير رجاله ، ومسائل اخرى كثيرة ، وادركت رأساً انه مصيب وان افكوف محارب أخرق .

لم يكن هذا الضابط ، واسمه اوسبانسكي كوتيرسكي ، يهمه احد من الناس ، كان على شاكلة صاحبنا بيير ، المهم عنده ان يقاتل . وقلت له مازحاً :

ـــ اذا كنت تريد ان تحارب ، فهيا بنـــا وحارب جماعتك .

وحك حاجبه وسكت ، وحدثت عنه افكوف واطريته وقلت انه فتى باسل فتمتم افكوف :

ـــ ولكن كيف نأمن امثاله ؟

وقلت له : ولكنا غير مدربين .

ـــ هذا حق ، فنحن أولو قوة ، ولسنا اولي معرفة . حدثه ايضاً فما يزال امامنا متسع من الوقت لرميه .

وغمرت عطوفة السيد كوتيرسكي بالخمر وبالشاي ، وانا اقول له:

ـــ ان الحق معنا . اما هو فيدمدم :

ـــ الشيطان وحده يعرف اين الحق ، قد يكون معكم ولكن الذي اعرفه انه ليس معنا .

وخلاصة القول ان كوتيرسكي قبل ان يكون مساعد افكوف ، واذا اردنا استعمال التعابير العسكرية قلنا انه : رئيس اركان حربه. ولقد بدا لنا سيداً حقيقياً ، وجعل يقوم بتمريننا تمريناً جيداً ويقودنا

قيادة حازمة ، وكم مرة لمت نفسي بعد ذلك لاني حلت دون رميه بالرصاص . وجعل اصحابنا يتذمرون ، ولكنا ظفرنا مراراً وتعلمنا حيلًا ، وفهمنا ان هذا الضابط عملاق !

كان لايتقدم الصفوف ، ولا يبدي بسالة ما ، كان ينتصر بحيلة الثعلب ، في رفق ، ويتسرب كما تتسرب الافعى في لين ، ويوفر رجاله توفيراً مجدياً ، لا في المعركة وحدها ، بل في فترات الراحة . وكان يفتش حتى الاقدام ويراقب وسخها ، ويأمرنا بالسباحة دائماً ، ويعلمنا الرماية الصائبة ، ويرسل طلائع استكشاف ، حقاً لقد كان لعنة دامغة ، لايترك لنا لحظة من هدوء .

وقال لنا يوماً :

ـ من وجدت في ثيابه قملا جلدته

واطراه الجنود الشيوخ اطراء رائعاً ، ولم يحبه الشباب .

لم نكن نتجاوز سبعة وستين مسلحاً ، ومع ذلك فقد استطاع بهذا العدد ان يقودنا الى اعمال لا تزال تصعقنا بما فيها من مهارة ، وما ادركنا بها من نجاح .

كان بادىء ذي بدء يكثر من التحدث الي ، ولكنه سرعان ما تركني ، كان غير قادر على الفهم ، فالفهم ليس من طبعه ، وكان يكره الاجانب كالبولونيين والتشيك والالمان ، ولكنه كان يشفق على الروس اشفاقا كبيراً ، وكان قاسيا : يحك حاجبيه ويكشر عن انيابه : والسلام على الاسرى .

واصبح قائدنا بعد مقتل افكوف . كان افكوف وبيير وجندي ياباني يسبحون في نهر قرب معسكرنا عندما هاجم المعسكر عشرة

ضباط . وسمع افكوف دوي الرصاص ، فهرع الينا عوضا عن ان يختفي في السياج ، وكان الضباط يربون في اتجاهه ، فقتله واحد منهم ، وكسر آخر رأس بيير فمات ، واعترف اني لم آسف عليه قطالما ازعجنا فساده .

ولا ازال ارى افكوف حتى اليوم ، كما رأيته يوم قتل ، ممدداً على العشب ، طويلا يبلغ مترين ، متصالب الذراعين ، يخيل اليك انه يريد ان يطير ، ليس عليه غير قميصه والى جانبه خنجره ومسدسه . ولقد آلمنا قتله جميعا ، وركع كوتيوسكي الى جانبه وزر جيب قميصه ، وبقي راكعا زمنا طويلا ثم نهض واقفا يرثيه ويقول :

— انك لشهيد عظيم من شهداء الحق ، ولقد كنت بطلا ...

● ● ●

ومضت ايامنا نحن المحاربين على هذه الوتيرة ، وذكر لنا الاسرى ان الكولتشاك يبحثون عنا ويطاردوننا فقد ازعجناهم كثيراً ، ومضى بنا كوتيوسكي ، وهو الذي يعرف كيف يحصل على المعلومات ، الى ضواحي «نوفونيقولايفسك» وكانت لنا في الطريق مقابلة مزعجة : عثرنا على قافلة ، وغنمنا تسعة وعشرين حصانا ، وخمس عجلات صحية ، وتسعة اسرى كانوا مثلنا من الانصار . ورأيت في احدى العجلات صاحبنا الدكتور الكسندرسيريللوفتش مضطجعا ، ورأيت بين الاسرى صاحبي البحار في «تشيتا» ، ولم اعرفه الا باصبعه السادسة الزائدة . اما الدكتور فلم استطع قط معرفته ، بل هو الذي عرفني فناداني :

— اين انت يا علبة المصارين ؟

وتطلعت فوجدت رجلا عجوزاً يتمدد على الارض ، متورماً ،

اصلع الرأس ، ابيض اللحية ، جامد العينين ، غير مازح ، وامرني ان آتيه بتبغ وهو يدمدم :

ـــ هذا ثالث ايام ثلاثة لم ادخن فيها ، لعنك الله ...

وسألني وهو يشعل لفافته :

ـــ أأنت تبسط الحياة ؟

ورأيته رغم انه طبيب ، قصير العمر ، لا يكاد يستطيع الكلام. وسألني النوتي عن تاتانيا ، وهل اذكرها ، واخبرني انها متوارية عن الانظار في «نيقولا يفسك» وانه في حاجة اليها من اجل بعض القضايا ، وأقنع كوتيرسكي بارسال من يبحث عنها ، وبعد يومين وصلت الينا في عجلة ، واستقبلتني في سرور قائلة :

ـــ أأنت بلشفي ؟

وقلت لها : نعم ... طبعـــاً .

ومع ذلك فلم اكن كثير الثقة بالبلاشفة . وجمعت تاتانيا اصحابنا ، والقت عليهم خطاباً جاء فيه قولها : ان امور الكولتشاك مضطربة ، وان علينا ان نضربهم ضربة عزيز مقتدر ، لنفرغ الى حياة السلم وتنظيم المجتمع .

كانت تصرخ ، وتحرك ذراعيها ، وتختلج خد من خديها وتلمع عيناتها ، ورأيتها عجوزاً يابسة قاتمة الوجه ، جائعة ينبح صوتها نباحاً ، وصفوة القول لقد رأيتها مزعجة .

وقالت لي عند المساء : انها كانت منذ امد بعيد عضواً في الحزب ، وانها سجنت مرتين ، وانها لم تعرف النوتي الا منذ اشهر ثلاثة عندما كان جريحاً في المستشفى ، ولكن هذا كله لم يكن مما يعنيني ، ثم

سألتني :

ـــ اتعلم ان مولاك الطبيب قد انضم الى الكولتشاك ؟

وقلت لها عندئذ :

ـــ ولكن ها هوذا الطبيب !

واختلجت اختلاجاً ، يا للخسارة ، نحن لا نرى حركة عينها من وراء العوينات ، ويحها انها لم تنس ولا يمكن ان تنسى ان الطبيب ردها مدحورة يوم داعبته ، لقد كنت اعرف ذلك ولكني الآن بلغت حد اليقين .

وسخرت منها وهي تؤكد لي ان الطبيب عدو لدود ، ومضيت اليه اقول :

ـــ هنا تاتانيا .

وبلل شاربيه بلسانه ودمدم :

ـــ اصحيح ؟

لم يقل غير هذه الكلمة ، وسهرت الى جانبه طوال تلك الليلة ، وانا اتساءل : اتراها تقاربه ؟ اتراهما يتحدثان ؟

ولكن لا ... ها هي ذي تسير مجانبـــة له ، وتحرك قضيباً في يدها ، ومضت مرة الى النوتي فقالت له كلمة ثم عادت الى السير كأنها حارس ليل .

دنوت من الطبيب مرتين ، فخيل الي انه نائم ، وكلمته فلم يرد علي ، وترددت في ايقاظه ، فقد كنت اريد ان اقول له شيئاً . وبدا لي وجهه في ضوء القمر احمر ساخناً ، ونحن نعلم ان وجوه الاصحاء من الناس تبدو في هذا الضوء زرقاً شاحبة .

وانتصف الليل فهيأنا متاعنا للسفر ، وسألت كوتيرسكي :

ـــ ماذا نفعل بالاسرى ؟

كانوا ستة : ضابط بولوني ، وثلاثة جنود جرحى ، وامرأة يهودية ، وصاحبنا الطبيب ، وكانت المرأة تحتضر وعيونها غائرة ، وصرخ كوتيرسكي :

ـــ وماذا تريد ان نصنع ؟

واقترح الجماعة الاجهاز عليهم جميعاً ، وغمز كوتيرسكي انف حصانه وقال :

ـــ استعدوا !

ولكني اقنعتهم بوضع المرضى على ضفة النهر وتركهم هناك ، فقبلوا واعدم الضابط طبعـــاً ، اما الدكتور فاجهد نفسه يمازحني وهو يودعني وقال :

ـــ كان عليك ان تجعلني بسيطا يا علبة المصارين .

واجبته :

ـــ ستموت عما قليل وحدك يا الكسندر سيريلفتش.

وتركته وانا عليه مشفق حزين ، طالما اثر في نفسي تواضعه وبساطته .

وقتله جندي يلقب باليابابي وصياد دببة ، تركناهما في المؤخرة دون ان نشعر بهما ، وما لبث اليابابي ان لحق بنا وقال لي :

ـــ لقد اجهزت على دكتورك ، انا لا احب الاطباء .

بل لقد اجهزا على المرضى جميعا بضربات العصي حتى لا يسمع لهما صوت ، وزجرتهما وشتمتهما قليلا ، فأخجلني كوتيرسكي ، وهو

يقول لي :

ـــ ما عسانا نفعل لو رآهم العدو احياء ؟

وساءلت نفسي : أليست تاتانيا هي التي دفعت الياباني الى القضاء على الطبيب ؟ ها هوذا لا يملك لفافة تبغ ، واذا به بعد قليل يدخن فيطيل التدخين ، وعرفت انها لفائف صاحب تاتانيا البحار .

أتكون قد امرت بقتله رأفة به كيلا يتألم ؟ ربما ، فقد يحدث ان يقتل المرء رأفة وحنانا .

ألا ترى اني رجل رؤوف رفيق ، ومع ذلك فقد قتلت بيدي هاتين رجلا عجوزاً مسكينا لا يملك دفاعا عن نفسه ، اما انا فلم اقتله رأفة به ، بل قتلته لسبب آخر .

قلت لك : اني لا احب الشيوخ ، واني اراهم مفسدين مضرين . وطالما قلت للفتيان منا :

ـــ لا ترحموا الشيوخ ابداً . ان وهن عظامهم وتمسكهم بآرائهم يجعلانهم غير نافعين . ان الشاب يتغير ، ولكن الشيوخ لا يتغيرون ، وسرعان ما يحتقرون من يخالفهم ، فهم يعجبون بأنفسهم ، وتراهم جميعا يتفقون على نمط واحد من التفكير :

« انا شيخ ؟ اذن فأنا على صواب . »

انهم رجال الامس الذاهب ، وانهم ليجزعون من الغد الآتي ، ذلك ان هذا الغد لا يحمل اليهم غير الموت .

وكنت القي على فتياننا درسا آخر في تدبير المنزل :

اما الاثاث الضخم ، مثل المرايا ، والصناديق ، والسرر ، فلا تكسروه ابداً ، ولا تحطموه ، ولكن حطموا كل ما هو تافه حقير ، واحيلوا

كل ما هو باطل صغير الى تراب ، فمصدر شقائنا ترهاتنا .

اجل لقد لقيت مرة شيخاً ضئيلا ساماً كالافعى . اصبت بتيفوس فتركني رفاقي في قرية صغيرة عند فلاح صالح ، وظللت طريح الفراش طوال الشتاء ، وانا مريض مريض ، وفقدت ذاكرتي ، وعندما ثبت الى رشدي لم افهم مما حولي شيئاً ، كأني نائم منذ سنين ، وسمعت الفلاحين يزمجرون ، ويشتمون موسكو ويكيلون السباب للبولشفيك ، ماذا حدث ؟ ولاحظت شيئاً ذا قلنسوة يضرب في القرية ، ويتوكأ على عصاه . كان عجوزاً ضئيل الجسم ، كثير النشاط ، صغير العينين ، تضطربان كما تضطرب الخنافس في الضياء ، نعم ان هنالك خنافس حقيقية لها اجنحة يخيل اليك انها من حديد . وكان يلبس كما يلبس الناس جميعاً ، ولكنهم كانوا يرمقونه ويحترمونه .

وجاء الربيع ، وبدأت اسير وارى ، لقد اصبح الناس غير الناس ، غرباء عابسين غضابا ، ولم ار واحداً منهم تبدو عليه مظاهر الهمة والنشاط ، وسمعتهم يشكون المصادرات والمفوضين ، وجعلت احدثهم واشرح لهم الامور رغم اني لم اكن افهمها على حقيقتها .

وكنت جالساً ذات يوم وراء القرية عند المرعى ، ورأيت هذا العجوز يتدحرج على الطريق ، ويذرع الارض بعصاه ، ورآني فاعرض بوجهه عني ، وبصق ، فغضبت وسألت صاحب مثواي :

ـ من هذا ؟

ـ رجل صالح وذكي ، يرى خداع الناس حراماً .

وحدثني في كراهية وضيق .

وسألت شاباً من مشوهي الحرب يدعى نيقولا راسكانوف ،

قطعت رجله واصابع يده ، عن امر هذا الشيخ فقال لي :

ـــ انه عجوز مضر ، يقطن القرية من زمن بعيد ، وهو منفي سياسي ، كان يملك خلايا نحل ثم ذهبت الخلايا فبنى كوخاً في الغابة ، وهو يعيش فيه الآن عيشة الراهب ، ويقد الملاعق ويتخذ سماء القديس .

ولم تكد الثورة تنشب حتى قرع لها طبول الحرب ، وزادت نقمته حين صودرت خلاياه ، ان المنطقة تعرفه ويقصده الناس من بعيد ، من مئات الفراسخ ، فيستمعون الى نصائحه وهو يقول لهم : ان اللصوص والكفار هم الذين يسيطرون على موسكو ، ويقول لهم غير ذلك ، ويدعوهم الى المقاومة والعصيان .

وحدثني عنه فقال :

ـــ عاد جنديان من الجيش الاحمر الى اهلهما في قرية من القرى ، واجتمع الشيوخ فقال بعض لبعض :

« ان هذين الفتيين من الاشقياء ، اما احدهما فقد قتل رفاقه اباه وامه ، واما الآخر فقد احرقوا بيت اهله ونهبوه وتركوا والديه بائسين. لو تركناهما افسدا علينا ابناءنا. فلنقتلهما ليعرف ابناؤنا ان عهد الفوضى قد انقضى »

وشدوا وثاق الحمامتين ، ووضعوا رأسيهما على جذع شجرة ، وقطعوهما بالفأس .

كان العجوز يسكن على بعد عشرة فراسخ من القرية ، فوق رابية قائمة على كتف الغابة ، في كوخ صغير ذي نافذة واحدة ، وحوله حقل صغير ، فيه ثلاث خلايا ، وكليب اشعث . تلك هي ثروته .

كان النهار لا يزال منيراً حين دخلت عليه بيته ، ورأيت العجوز جالسا فوق جرثومة شجرة قرب النار ، وفوق النـــار قدر تغلي وتضطرب في جوفها قطع من خشب ، وجعل يقد الملاعق ولا ينظر الي ، كان يرتدي ثوبا من قنب ، ازرق ،حافي القدمين ، تلمع صلعته ، وتنتصب فوق اذنه اليمنى بثرة كأنما هي جنين رأس آخر ، ولقد ازعجتني هذه البثرة الصغيرة على الخصوص .

قلت له : جئتك أتحدث اليك

ـ قـــل

سكت ، وجعل يدير سكينه في سرعة أطارت قطع الخشب على ركبته وقدميه ، وكانت هذه القطع رطبة لا تحدث صوتاً كأنها قطع من السمن الجامد ، والماء يغلي في القدر ، والكلب يعـــوي ويلتصق بالعجوز ، ومع ذلك فقد شعرت ان كل ما حولنا ساكن صامت .

ثم سألتـــه :

ـ علام تدعو الناس الى العصيان ؟ ما تعتقد ؟ وما تريد ؟

وظل صامتاً مطرق الرأس ، لا يرفع عينيه ، كأن ليس من أحد امامه ، والخشب يتطاير ، وهو اصم ابكم ، والكلب المسكين أصبح كالمزمار من كثرة ما عوى ، والعجوز لا يحاول ان يسكته ، وبقي جالساً يعمل كأنه ليس الا يدين تتحركان وكتفاً تضطرب ، واما ما تبقى منه فتمثال من حجر ازرق .

كل شيء حول هذا الشيطان الاشمط هادىء وجميل ، والغابة وراء الكوخ تفيض بالشذا والعطر ، وامامنا واد ينحدر ليشرب من

غدير جار ، والشمس تلعب .

وفكرت في نفسي قائلا : ما احسن هذه الصومعة التي اخترتها لنفسك ايها الساحر العجوز .

غضبت وأسرفت في اهانته وتهديده فلم انل منه شيئاً ، ولم ينبس ، فغادرته كالأبله ، وتلفت الى الكوخ بعد ان فارقته ، فرأيت النار تلمع وقلت :

ـ يا له من عجوز مضر .

وقال لي صاحب مثواي بعد يوم او يومين ، وهو مطرق الرأس الى الارض كأنه ثور يهم ان ينطح :

ـ لقد شفيت يا كيتيازيف ، فسر الى عملك .

وعرفت سره : لقد حدثه العجوز عن زيارتي ، فأقبل يطردني ، ورأيت امرأته وكنتيه وخادمه ، وهو الماني ، يرمقونني شزراً ، ويغلظون لي في القول ، واصبح من في القرية كالثيران ، وهم الذين كانوا يتطلعون الى حديثي في شوق ولهفة .

وقلت لنفسي :

ـ انا وحيد ، ودفني في قبر من تراب سهل هين ، وليس من احد يحزن علي ، بل من ذا الذي يرثي اليوم لاحد ؟ وجعل قلبي يغور .

وذهبت الى راسكانوف :

ـ دعني أختبىء عندك يومين او ثلاثة ايام

واستأذنت صاحب البيت بالسفر كما يليق ، واظهرت اني اغادر القرية عند منبلج الصباح ، وتواريت يوماً ويومين وثلاثة ايام في حماماته ، فلما كان اليوم الرابع لبست ظلام الليل ومضيت في طريقي ..

كان لي مسدس فبعته لراسكاتوف ، ان المسدس اداة خطرة على مسافر منفرد لانها تفضح نمط حياته ، وهكذا جعلت من حجر مربوط في منديل سلاحي الوحيد .

بلغت منزل الشيخ فطرقت الباب ، وانا اظن انه يرى في زيارة الزائرين ليلا امراً عاديا ، وانه لا يخاف ، وشق الباب وقد وضع يده فوق المزلاج ، وسرعان ما وضعت رجلي في العتبة ، ولقد اخطأت ، فان الشيخ فهم اني غريب ، فدمدم وهو لم يكد يستيقظ :

ـ من انت ؟ وماذا تريد ؟

وأنشب الكلب انيابه في ساقي ، وعندئذ ضربت يد الشيخ بيدي وضربت فك الكلب بقدمي : وانا أعلمك : اذا ازعجك كلب فاضربه تحت حنكه من تحت الى فوق ، وانا ضامن لك ان تفصل رأسه عن عموده الفقري بضربة واحدة ...

دخلت الكوخ واغلقت الباب بالمزلاج ، والعجوز يدمدم خائفاً :

ـ ما فعل لك الكلب ؟

واشعل الثقاب ، كان علي ان اضربه في تلك اللحظة ، ولكن ليس القتل سهلا الى هذا الحد ثم اني لم اكن ارى شيئاً ، واشتعل المصباح ، ولم ينظر الشيخ الي خوفاً او تغافلا ، وكنت انا خائفاً ايضاً ، وساقاي تضطربان ، وازداد خوفي حين نظر الي من جانب ، ثم تراجع فجلس على مقعده معتمداً على مرفقيه ، صامتاً توحي عيناه الكبيرتان الرحمة والحنان ، والحق اني اشفقت عليه ، والحق اني قلت له :

ـ والآن ... لقد انتهت ايامك ايها العجوز

ولم تطعني يدي ولم ترتفع.

ولجلج في حديثه وتمتم :

ـ لست خائفاً ... ولست على شيء آسفاً .. ولكني ارثي للناس فلن يجدوا بعد موتي من يحمل اليهم السلوان

ـ أهذا الخداع تسميه سلواناً ؟ اتريد ان تصلي؟ ..

وركع على ركبتيه وعند ذلك ضربته ، كان هذا مزعجاً حقاً ، واوجعني قلبي ، واختلج جسدي، وشعرت اني وحش مفترس .

كدت اكسر المصباح واحرق الكوخ ، ولو حدث ذلك لهرع الى النار رجال القرية وقبضوا علي في الغابة ، وانا الذي لا اعرف تلك البلاد ، ولكني لم افعل ذلك بل اغلقت الباب وسرت الى الغابة ، ولما طلعت الشمس كنت قد قطعت عشرين فرسخاً فنمت ... ثم استيقظت فوجدت حولي عشرة من جنود الجيش الابيض ينظرون الي ويصرخون :

ـ جاسوس ... الى المشنقة

وجعلوا يضربونني، فقلت لهم :

ـ علام تضربون ؟ ولم تصرخون ؟ ان البلاشفة لا يبعدون عنا اكثر من فراسخ سبعة . تركتهم هناك في سفح هذا التل ، وهم زهاء مائة وخمسين فارساً ، لقد ارادوا ان انضم الى صفوفهم فوليت الادبار ...

وخافوا وصدقوني ثم سألوني :

ـ وما هذا الدم على قدميك ؟

ـ وكيف لا يلطخ الدم قدمي ، وقد كسروا عندهما جمجمة رجل بعصا؟

خدعتهم وارعبتهم فساروا مسرعين وحملوني معهم ، وانفقت عليهم بضاعتي ، بضاعة التغابي في الساعات الحرجة ، وهي عادة طالما انقذتني .

ولم تكد ترتفع الشمس حتى كنت لهم مساوياً .

يا للناس ، ما اغباهم حين تعرفهم : انهم بهائم في كل مظاهرهم : في مشاغلهم ، وفي مباذلهم ، في آثامهم وفي قداستهم .

ألم تر الى ذلك العجوز ؟.. ولكن كفانا حديثاً عنه ... ولست اريد ان اذكره ... ومع ذلك فانا اقرر انه كان عجوزاً جلداً ...

نعم ان الناس بهائم .. فعلام هذه الضجة وهذا البحران ؟ انهم يطلبون اموراً فوق العادة ... ويجهلون ان سلامتهم في البساطة .

اما انا فقد لقيت ما كفاني من مثل هذه الخوارق ، لو كنت لا اعرف كيف يجب ان اعيش ، ولو كنت مؤمناً لسألت الله ان يخلقني قنفذاً اسعى في سراديب الارض ... أرأيت كم تألمت ؟ !

والآن ، لقد انهار هذا البنيان الذي اقامه الشيطان منذ قرون ، وها هو ذا يهوي خرابا يبابا ، وارجو ان ينظم الناس عن قريب امورهم في سهولة وفي يسر : لقد فطن العالم كله الى ان حكمة الحياة تعتمد على بساطتها ، وان علينا ان نكنس بعيداً وبعيداً جداً كل ما لنا من خصوصيات قاسية .. ان الشيطان هو الذي اخترع ما فوق العادة ونصبه لنا فخاً لنقع في حبائله فريسة رخيصة ...

أسمعت يا صديقي ؟ .

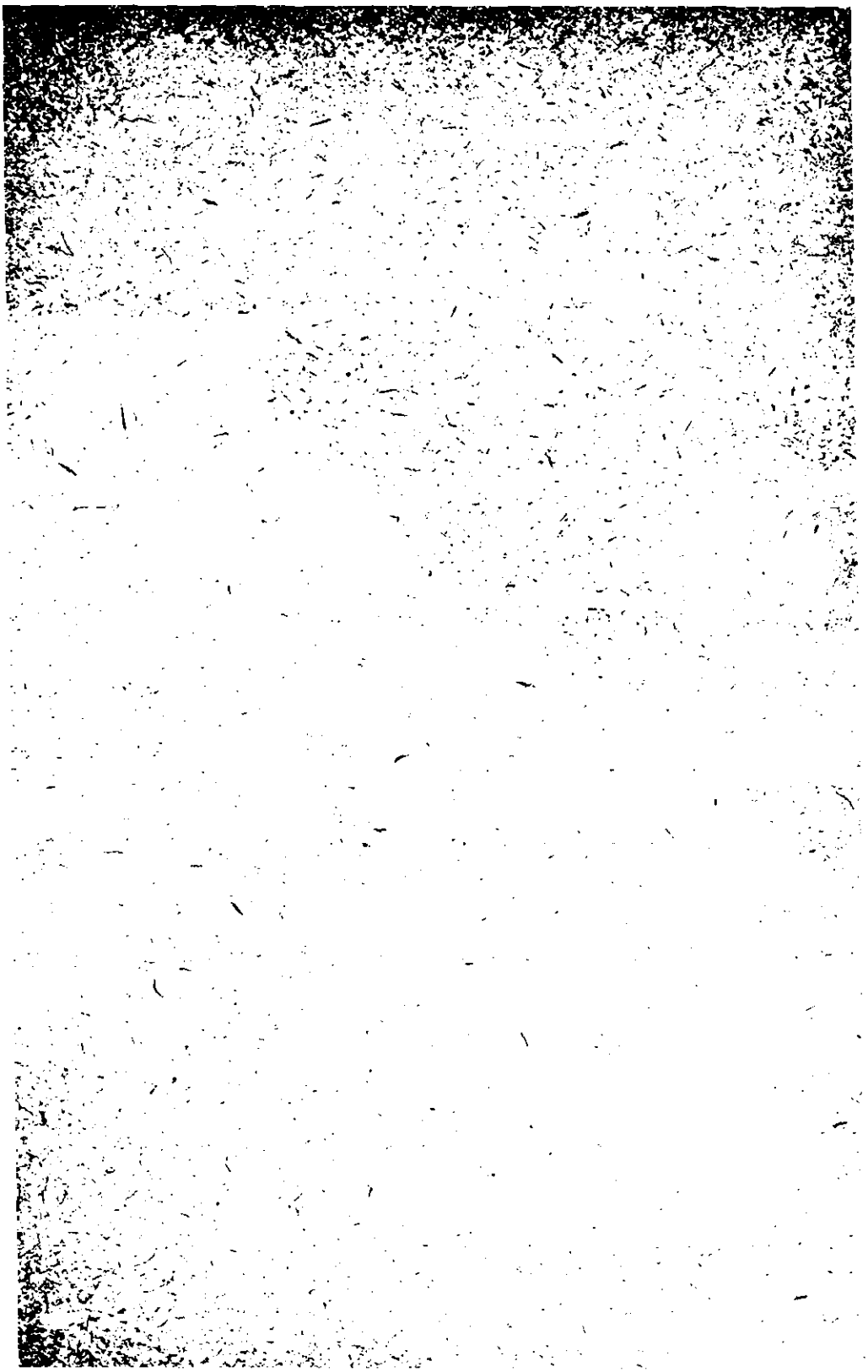

حکایت

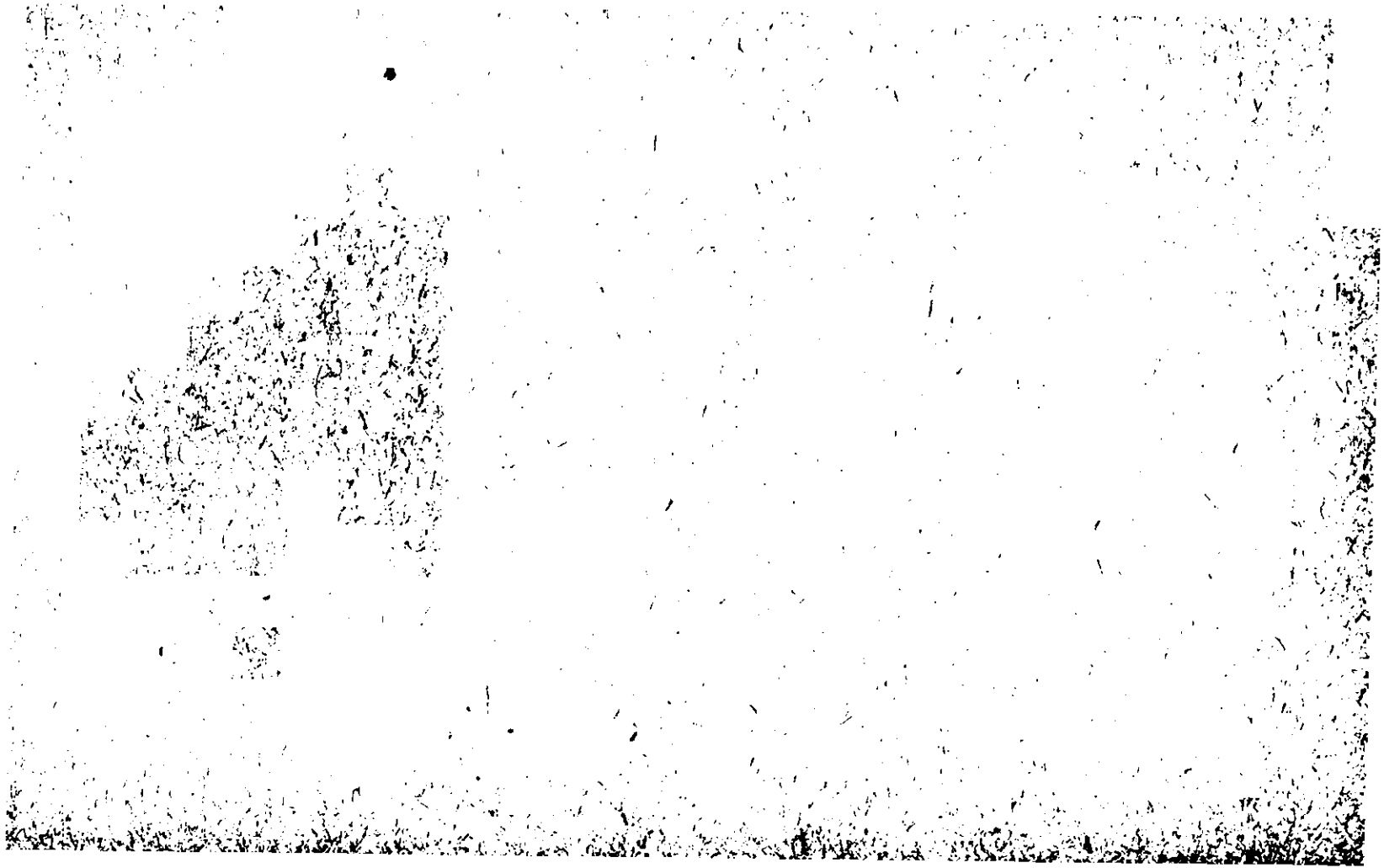

حكاية

— ١ —

عندما جس الطبيب الأشقر ذو الانف الكبير ، باصابعه الباردة جسم بيكوف وصرح جازماً أجش الصوت ، ان داء المريض أصبح خطراً لانه أهمل علاجه ، شعر بيكوف بغيظ شديد يستولي على نفسه ويملأ قلبه ، انه مثل ذلك الغيظ الذي كان يشعر به في أيام شبابه اذا خاب أمله في ورقة يانصيب، أو مثل ذلك الغيظ الذي استبد به ذات ليلة من ليالي الحرب الروسية التركية ، حين قضاها كلها مختبئاً بين العوسج في بساتين « عين الفرجة » مكسور الساق ، يغسله المطر الاسود ، وينتزع الألم لحمه عن عظمه انتزاعاً بطيئاً .

— اذن فسأموت .

وجلس الطبيب وراء المنضدة يهم بالكتابة ، ويجرب قلمه الصدىء ويدندن بكلمات مبهمة ، ولم ينظر اليه بيكوف ولا اصغى الى قوله غيظاً وحقداً ، بل تطلع من النافذة الى الشارع : الريح تكنس الارض ، وتطارد الريش والبراية والغبار .

— عمري تسع واربعون سنة .

ـ لقد أسرفت في الشراب .

وشتم المريض الطبيب في سره وقال :

ـ هذا ليس بسبب ، كثير من الناس يشربون ثم لا يموتون عبطـــة .

وثار عقله على الموت :

ـ انظر قليلا : هذه دجاجة. انها تعيش وتبيض وتحضن بيضها حتى يفرخ ، وأنت أنت ايها الانسان تموت ! ! لن يجديك تعبك في حياتك القاسية شيئاً .

وقام فشيع الدكتور الى الباب صامتـــاً ثم عاد خفيف النعل خفيف الثياب، ومر بالمرآة فتطلع الى وجهه فيها : وهذه المرآة مالها تعكس صورته في وضوح غير عادي : وجـه نحيف تبدو عظامه ، عينان خضراوان حزينتان ، لحية طويلة وخطهـــا الشيب تسقط شعراتها على صدره ، ما أبشع هذا المنظر .

وتنهد بيكوف ثم جلس على مقعد جلدي قرب النافذة فنفخ وزفر وشعر في خاصرته اليمنى بالم حاد يثقب كبده في غير هوادة ، وينهك قوى جسده ، ويملأ نفسه ضغناً مريراً .

ـ أسرفت في الشراب... أسرفت في الشراب ، وأنت أيها الابله ما تشرب ؟ وبم تتسلى ؟

هكذا كانت صرخة بيكوف حين صعد الدكتور الى العجلة .

ووقفت عند عتبة الباب امرأة بدينة ، بليدة ، هي الطاهية آجاش وقالت : هل آتيك بالسماور؟ فصرخ يشتمها :

ـ كم قلت لك يا ذات الشدق الاحمر : لا تضعي المقعد قرب النافذة ،

أرأيت كيف تغير لونـــه ؟ أتظنين ان الشمس لم تخلق الا لافساد الاثاث ؟

وقالت آجاش في جرأة :

ـ انت الذي غيرت موضع المقعد .

وتذكر بيكوف عندئذ مقدار ما بذل من جهد في جر المقعد الثقيل ، فزادته هذه الذكرى مرفقة بهدوء العجوز غيظاً على غيظ .

ـ اغربي عن وجهي .

ومضت العجوز فأتبعها نظره وهو يفكر :

ـ هذه العجوز ستعيش اربعين سنة اخرى ، اما انا فيجب ان أموت . وثروتي ؟! . لقد قضيت حياتي كلها في سبيـــل جمعها درهماً درهماً ، وغرقت في عملي فلم أجد وقتاً أتزوج فيه . كنت استطيع الزواج بعد انتهاء الحرب ، ولكن الحيطة حالت بيني وبينه ، ولو تزوجت آنئذ لكان لي اليوم ابناء كبار ... ولكن ما أدراني ان حياتي ستكون قصيرة ؟ . .

واطرق برأسه وقال متضرعاً في صوت عال :

ـ يا رب . . . يا رب .

كان اكثر ما يغيظه ويزعجه ان لا يجد احداً يخلف له ثروته ، وانها لثروة بذل في سبيل جمعها عشرين سنة من الجهد والحيـــلة . أيتركها الى الدير ؟ ايتركها الى مشروع خيري ؟ كلا ثم كلا ، ان عقله يأبى ذلك وينكره . لقد عرف بيكوف معرفة يقين ان الكهان والرهبان ومن لف لفهم ، ممن ينصبون انفسهم أولياء على خيرات الله في الارض ، وربما جاوزوهـــا الى السماء ، ليسوا ممن يثق بهم

الانسان كثيراً ، وانهم يحملون على ظهورهم من الاثام مثل ما يحمل على ظهره ، ثم ان صلته بالله لم تكن على ما يرام ، فقد كان يحذره ولا يطمئن اليه . كان يشعر بيكوف دائماً ان الله مطلع على اعماله ، عارف سره وعلنه ، مراقب له ، وانه طالما عرقل سيره وحال بينه وبين اطماعه ، هذه الاطماع التي تقوم عليها الحياة ولا تستغني عنها.

كم مرة دبر بيكوف أموره ، وهيأ كل شيء ، ولم يغفل شاردة ولا واردة ، ولكن ها هو ذا يحس في اعماق نفسه بعود من الثقاب يشتعل ، وبخيط من النور يبص ، واذا بالحياة تدب في الافكار القاتمة الغائمة ، واذا بالخوف من الاثم يستيقظ في نفسه ، واذا بالخشية من العقاب تنبض في قلبه ، وتثير فيه نوعاً من الشعور كأنه الاشفاق على اولئك الذين استطاع بيكوف نفسه ان يخدعهم وان يستنزف دماءهم .

وفهم بيكوف ان هذا البصيص من الوجدان ليس من عمل الشيطان ، وان الله هو الذي يبعث به حين يضطره على الرغم من عقله ، الى ان يرحم اخوانه من الناس ، حين تكون مهمته ان يظفر باموالهم ، وفي مثل هذه الاحوال يقول بيكوف في حزن وتهكم لوكيل اعماله وامين سره « كيكين » الاحدب الخجول صاحب العينين العصفوريتين :

ـ ولماذا اشفق على الناس وهم لا يشفقون علي ؟ لم اعرف واحداً منهم احسن الي .

ويقول له كيكين :

ـ الشفقة غباوة ، ما في ذلك شك .

وتذكر كيكين فتناول عصا مكنسة ثم قرع بهـــا السقف ، وتسلل الى الغرفة بعد دقيقتين او ثلاث دقائق احدب ضئيل الجسم في غير ضجة . كان ذا فخذين مفتولتين اذا تشابكتا في مشيه خيل اليك انهما لولبان

وسأل الاحدب بيكوف وهو يغمزه بعيني دجاجة مريضة :

ـــ ما الخبر ؟

ـــ يظهر اني سأموت .

ـــ لعل ذلك غير صحيح .

ـــ بل هو صحيح .

ـــ لقد تعجل الموت .

ـــ نعم لقد تعجل ، ولكن سيان على ان اموت عاجلا او آجلا ما دمت غير قادر على رد الموت عني ، وانا كما تعلم ، جندي ، ولكن الذي يهمني هو ان اعرف ماذا افعل بثروتي ؟!

وقال الاحدب ، وهو يصب الشاي ، ويدق الارض برجليه :

ـــ ثروتك يرثها قانونياً ابن اخيك يعقوب سوموف .

وصرخ بيكوف في غيظ هاج عليه ألمه في خاصرته :

ـــ ولكنه في الدرجة الثالثة من الوارثين ، ثم اني لا اعرفه ، ولم اره منذ خمس سنوات .

ـــ هذا حكم القانون

ـــ القانون ؟ !

وصرف باسنانه ، والقى في وجه صاحبه شتيمة مخيفة ، فقال له كيكين ناصحاً في فتور :

السمك يضيفون شيئاً من ملح البارود حتى لا يتفسخ، والمرض تفسخ.

كانت في حديث يعقوب ملاحة مدهشة ، وانسابت كلماته مثل حبات الرمال في الشاطىء تجرف حذر بيكوف الذي اوحاه اليه شباب ابن اخيه :

ـ أنى لك هذا ؟

وقص عليه يعقوب في رضا ، كأنه يتحدث الى صديق قديم ، انه لقي شاباً مثقفاً ، وصياداً ممتازاً ، علمه فاحسن تعليمـــه ، وان هذا الشاب انتحر في الخريف الماضي .

ـ ولماذا انتحر ؟

ـ لقد أحب فشقي بحبه

ـ ولكن الانتحار جنون .

ـ كان مستقيماً . . .

ـ كيف ؟

ـ كان مستقيم العواطف .

ـ اوه !

وفكر بيكوف: « يا لك من صبي مضحك ثرثار . . ولكنك صغير».

وانقضت فترة غير قصيرة في حوار سهل ممتع ، والقى سوموف نظرة الى ساعة الحائط ، واعلن ان عليه موعداً في الكنيسة للتمرن على الغناء ، ثم سلم في رعاية وحشمة وانصرف .

وتمدد ايجور بيكوف فوق مقعده وجعل يفكر :

ان الحوار الطويل يزعجه دائما . وعلام الحوار ؟ انت تعرف مباشرة ما يريد منك الناس ، وتعرف مقدما ما تريد من الناس . اما

هذا الولد فنسيج وحده ، انه ما يزال صبيا ولكنه لم يعلن انه له قريب ولم يدعه عمه على الرغم من انه يعرف تماما ان ليس له قريب غيره . أترى ذلك محسوبا ومقرراً سلفا ؟! ما يظن بيكوف ذلك ، فلم يبد على وجه الفتى ما يفضح سريرته .

وعاد كيكين الى بيكوف متعبا يكده العرق ، كان في المخزن يسلم دفعة من القنب ، وجلس الى المنضدة ثم سأل :

ـ هل جاء ؟ ـ نعم ـ وما رأيك فيه ؟

ـ هل تستطيع معرفة طوية الانسان من نظرة واحدة ؟ ومع ذلك فقد كانت اسرته راضية مطمئنة .

وجلس كيكين يشرب الشاي ويقضم الخبز ، ويبلع اللحم ويصغي الى حديث سيده المفكر :

ـ انه يجب ان يحمل الى الناس شيئا من السلوان والعزاء ، وهؤلاء الذين يحملون لهم السلوى مكرة خادعون ، لا اثق بهم ولا احبهم . ليس الحنان فضيلة عندي ، فقد عاش الناس وما يزالون يعيشون وكأن الله خلقهم لكي يسخر بعضهم من بعض ويهزأ بعض ببعض .

وقال الاحدب يوافقه :

ـ كل هذا صحيح .

ونسي الاحدب حين قال ذلك انه كان طوال حياته موضع سخرية الناس لانه ذو عاهة .

ـ نعم ان الشيطان يغوينا ويثيرنا فينفر بعضنا بعضاً كأننا الديكة ، وهو ممسك بكلتا يديه خاصرتيه يخشى ان يقتله الضحك علينا اذا ما نحن اخطأنا ، ولله فينا سر خفي لا نعلمه . ان الله مثل رئيس الشرطة

يرى منظر المتشاجرين ويسمع شتائمهم ، ولكنه لايتدخل في امرهم ، ولا يقول لهم شيئا .

وكان حديث بيكوف حديث المغيظ المحنق ، ثم اغمض عينيه وسأل صاحبه :

ـ ما اخبارك عنه ؟ عن يعقوب ؟

ووضع كيكين ملعقة من العسل على قطعة من الخبز ، والتفت هو وكرسيه نصف التفاتة وقال :

ـ اخبرني معلمه تيتوف انه ولد نشيط ، وانه ربما غلب عليه هواه

ـ وكيف ذلك ؟ !

ـ لم يستطع تيتوف شرح ما يعنيه ، ولكني فهمت مع ذلك ان يعقوب يحب ان يصنع اكثر مما يطلب منه ، وان يهتم بما لا يمسه ، وسألت عنه شماس الكنيسة فاثنى عليه ثناء عاطراً ، ولكننا لا نستطيع ان نصدقه ، فهو صديقه وهما في الصيد مشتركان .

وسألت عنه صاحبة البيت فقالت : انه لا يشرب الخمر وحده ، وربما شربها مع اصحـــاب له ، وذكرت انهم ليسوا باولئك : فهم عمال يلحمون الحديد في معمل كوتونوف ، وصانعو اقفال ، وحـــلاق .

ـ حسنا ، انه لا يستطيع طبعا مرافقة الحاكم .

وقالت : انه لا يـــأتي بالنساء الى غرفته ، وانه يحب النظافة والنظام ، وانه طيب .

ـ طيب ؟ ـ نعم .

ـ ذلك طيش الشباب ، اذن فهو يعرف انك تسأل عن امره وربما اكتشف سر دعوتي ؟ !

ـ ما اظن ذلك ، فقد كنت حذراً .

وسكت بيكوف يفكر :

ـ ما العمل ؟ ذلك قدر ما استطيع محوه ، وعلي ان ارضى به . سل عنه وزدني من اخباره ، وادعه الى زيارتي ، فقد نسيت ان ادعوه.

وصرخ بيكوف في اشمئزاز اسود كريه :

ـ لا ... لا ... تصور اثر ذلك في نفسي ، تعبت وتعبت ، وحملت الآثام على ظهري ، وعلام ذلك كله ؟ وفي سبيل من هـذا كله ؟ في سبيل رجل غريب ،في سبيل صبي احمق.

وقال الاحدب مقتنعا بصواب سيده ، وغمز بعينيه المستديرتين :

ـ يا لها من حكاية مزعجة .

— ٢ —

لعل الداء كان واقفاً ينتظر اذن الطبيب فلم يكد يشير اليه حتى اسرع الى المريض ، فاشتد وجع خاصرته ، واضطرب عقله ،واصبح يخيل اليه ان في كل خلية من خلايا جسده ديداناً من القلق والحقد تتحرك دون انقطاع وتتلوى دون هوادة .

وسأله كيكين مرة :

— كيف الحال ؟

— عسير علي ان أشرح لك حالي ، هذه هي المرة الاولى التي اموت فيها ، ولهذا فأنا لم أتعود الموت .

كان يحب السخرية ويعرف كيف يتهكم ، ولقد أفاده هذا اللون من العبقرية في عمله ، فاذا جاءه الذين خدعهم يلومونه ويشتمونه قال لهذا او لذاك :

— لم اصنع غير ما كتبه الله لي ، ولم تصنع غير ما كتبه الله لك .

اما الان فهو لا يقدر على التهكم ،وما قوله هذا لامينه كيكين الا بقايا عادته القديمة ، وهو الذي لم يكن ليتناول كيكين من قبل بغمزاته .

وقضى اياماً طويلة يتمدد على مقعده ، ويسند رأسه الى الزاوية التي فيها الايقونات ، ويحس شيئاً فشيئاً ان ذهنه يجف وان افكاره

تنضب وانه يصبح اجوف فارغاً كالجلجل لا ترن فيـــه غير فكرة واحدة :

ـــ اموت ... لماذا اموت ؟!

وحاول ، كي يخنق هذا السؤال ، ان يتذكر ما نسي من الادعية والاوراد ، واستطاع بعد لأي ان يردد :

ـــ يا رب ... يا قادر ... قني عذاب النار ، وارفع غضبك عني واحفظني من همزات الشياطين ... آناء الليل واطراف النهار ...

وكان ، وهو يدعو ، يحس ان كلماته لا تقربه الى الرضا بقضاء الله والتسليم لامره ، بل هي على عكس ذلك تذكره بموته عبطة قبل الاوان ، فتزيد حقده ناراً وغيظه توقداً .

ونهض من مقعده فألقى على كتفيه رداءه ومضى الى النافذة فمر بالمرآة ، وانعكست على صفحة هذه المرآة صورة شبح طويل هزيل لانسان سجين : وجه فاحم ، وعينان زائغتان ، ولحية وخطها الشيب ، واخذ من على المسند مشطاً وجلس يصلح شعره ، وينظر الى الشارع والمنازل ، وقد أحاطت بها الحدائق الغلب ، وبدت القصور في قلب هذه الحدائق قوية متينة تتحدى القرون : الشارع صامت مقفر ، والحر شديد ، والسادة ، اصحاب هذه القصور ، هجروها الى البرية يصطافون ، ولم يبق امام الابواب الا البوابون .

كل شيء هادىء ساكن الا هذه العصافير المنهمكة في عملهـــا تزقزق وتغني ، ولكنها مع ذلك لا تستطيع الحيلولة بين بيكوف وبين تفكيره في ظلم الاقدار :

أهكذا تثبت للدهر وتصمد لصروف الزمان هذه القصور ذات

الاسس العميقة الضاربة في احشاء الارض ، هذه الاعشاش البشرية التي صنعها الناس من القرميد ، أهكذا ترفع رأسها شامخة أمداً طويلا، اما هو ، اما الانسان الذي بناها ، ووهب للارض جمالها بيديه ، فقد حكم عليه ان يموت ، وان يموت في امد قصير . ولماذا حكم عليه القدر بالموت العاجل : وهو هو ابجور بيكوف ، الذي يحمل وسام سان جورج بدرجة فارس ، والذي هو تاجر من الطبقة الثانية ، لماذا حكم عليه القدر بالموت قبل ان يبلغ عمره نصف مائة من السنين ؟ أهو اكثر من الناس آثاماً ، ولكن هل يحدد اقتراف الذنوب والآثام اعمار الناس ؟

وربما شعر المريض بشيء من الراحة والطمأنينة في الاماسي التي يزوره فيها يعقوب ، كانت احاديث ابن اخيه تنتزعه من احضان افكاره السود انتزاعاً ، وتوقظ في نفسه تطلعاً حاداً وفضولا غريباً، انه يريد ان يعرف هذا الصبي ويحرص على فهمه ، هذا الصبي الذي كتبت له حياة طويلة هادئة غنية ، سيعيشها على حساب غيره ، ولن يضطر فيها الى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب ، ايكون لحسن حظ هذا الصبي الغرير سبب ، ام ترى ذلك حماقة من حماقات القدر جائرة ومضحكة في آن واحد ؟

وكان حديث يعقوب غاية في اللذة والطرافة ، وبيكوف يصغي اليه في سرور وفي دهشة ، هذا الحديث مزيج فوق العادة فيه الحماقة وفيه الذكاء ، ولذلك فلم يستطع بيكوف ان يحكم على ابن اخيه حكماً نهائياً رغم أنه كان كثير الرغبة في ان يسرع في الحكم عليه.

وطالما سأل بيكوف نفسه :

ـ اتعود حماقته الى اصل طبيعته ام الى سورة شبابه ؟

ويظل يصغي الى يعقوب وهو يقول ويبتسم ابتسامة المفكرين:

ـ اذا شئت ان تحيا كما يحيا الناس جميعاً مالت ، واذا شئت ان تحيا على غير شاكلتهم تعبت .

ويجيب بيكوف :

ـ هذا صحيح ، ومع ذلك فالناس يختلفون .

وأزعجه ان يرى هذا الغلام الجميل مصراً على فكرته ، وان لا يستطيع هو بيكوف ان يجد ما يرد به على هذه الفكرة :

ـ كلا بل هم متشابهون في صميمهم .

ـ وما هذا الصميم ؟

ـ ان صميمهم قائم على رغبتهم في ان يعيش بعض على حساب بعض.

وسكت بيكوف ، وجعل يعبث بلحيته ، ويرقب صاحبه ، نعم ان ابن اخيه مصيب ، انه هو ايضاً سيعيش على حساب غيره ، على حساب عمه الراحل بيكوف .

ولكن...أيعرف يعقوب هذا الامر ام لا يعرفه ؟

ان كان يعرفه ثم يتحدث فيما يناقض مصلحته فهو اذن أبله.

وان كان لم يعرفه حتى الساعة فهو كذلك ابله .

وأراد بيكوف ان يكتشف مزية يعقوب الاساسية فقال له :

ـ الحياة كفاح يا صاحبي وقانونها : لا تتثاءب ، وهو قانون سهـــل .

ـ هذا صحيح ، ومن هنا كانت النكبات .

ـ ولكن لا سبيل الى الخلاص من هذه النكبات .

وسكت يعقوب وابتسم .

لقد شعر بيكوف ان هذه الابتسامات التي تعلو وجه ابن اخيه الانثوي ليست في مكانها ولا في زمانها، وانها غير نافعة، وانها تحمل في طياتها طواعية مزعجة ، وقال في نفسه وهو يدقق النظر فيه :

ـ يظن انه ذكي .

وربما شعر بيكوف بضيق اكثر حرجا حين كان يرى يعقوب يقطع الحديث ثم يصمت ويخفض عينيه فيعبث بلعقة الشاي، اويشتغل عنه بزر ردائه ، ويتخذ سيماء رجل يعرف اشياء كثيرة مهمة ،ولكنه يضن بها على غير اهلها .

واثاره هذا الصمت مرة ثورة جامحة ، فصاح ، وصوته يتهدج :

ـ الا تفهم ما اقول ؟

واجاب يعقوب في ادب جم وفي شيء من الخجل :

ـ بلى لقد فهمت ، ولكني ارى ما لا ترى .

ـ ولماذا ؟ ـ لي غير هذا الرأي .

ـ وما رأيك انت : حدثني ، ناقشني ، تكلم ولا تسكت.

وقال يعقوب في مثل ادبه السابق :

ـ لا أحب المناقشة ، ولا أعرف كيف اناقش ، وانا ارى ان المناقشات لا تؤدي الا الى شيء واحد هو زيادة الخلافات .

ـ اذن فأنت تريد ان يسكت الناس ؟

واستمر يعقوب في شرح فكرته كأنْ لم يسأله احد :

ـ لا يناقش الناسُ الناس ليكشفوا عن الحقيقة،بل ليخفوها. الحقيقة البسيطة التي يعرفها الناس جميعاهي: كونوا في براءةالاطفال:

أحبوا للناس ما تحبون لانفسكم ، ومن العار علينا أن نناقش هذه الحقيقـــة .

وقال بيكوف متقززاً :

ـــ يا له من ساذج .

وضحك ضحكة خبيثة وهو الذي يعلم ان الضحك يزيده وجعاً ، ثم قال :

ـــ وهل تعيش انت كما يعيش الطفل ؟ هل تحب اخـــاك الانسان ؟ آه منك . منذ لحظة قلت ان الحيـــاة كفاح وحرب ، وانت الان تقول غير ما قلته آنفا .. وارى ان رأسك لا يكاد يستقيم

ولم يؤخذ يعقوب بسخرية عمه ، بل تابع قوله في عناد حلو :

ـــ هذه هي الطريقة الوحيدة التي نستطيع بها ان ننقذ الحياة مما فيها من آلام ، وعلينا ان نوجه افكار الناس في هذه الطريق :

ـــ اية طريق ؟

ـــ ان نعيش كما يعيش الاطفال .

ـــ ولكن الاطفال ايها الاحمق لا يساويهم احد في عربدتهم ، وطيشهم ، ألا تعرف هذا ؟ انظر اليهم كيف ينقض بعضهم على بعض كأنهم الوحوش .

وسكت يعقوب وابتسم .

واراد بيكوف ان يقذفه باهانة ، ولكنه تمالك نفسه وقال في زفرة من زفرات الالم وفي صوت اجش :

ـــ دعني الان ، فانا متعب .

وجلس عند النافذة يتطلع الى الغيوم الحمر تضطرم كالنار فوق

البساتين وغرق في تأملاته :

ـــ صبي غامض .. رأسه يغلي .. ولد مبهم .. لا نستطيع ان نجسه ولا يترك لنا طريقا الى جسه ، يا رب ! يا رب ! ما اكثر ما في العالم من اسرار ! انه يتناول طعامه في بطء ، وفي هذا دلالة خبيثة ، فالكسالى يأكلون في مهل ، وهو ايضا يأكل قليلا : يلتقم لقما صغيرة كالسادة ، ثم يمضغها مضغا جيداً كالشيوخ ، رغم ان اسنانه قوية سليمة ، وهو دائم التفكير ، وغلام يفكر الشباب ؟ وفيم يفكر ؟ وهو يمشي على مهل كأنه يمشي في ارض لا يعرفها ، وفي وجهه ملامح « فتاة جميلة » ولو لا عزاره لكان وجه امرأة حقا ، وهو يريد ان يعيش كالاطفال ... يا له من ابله ، بل لعله غير ابله ، لعله انسان رخو القلب ، هش النفس ، لم تعركه الحياة ولم تمخضه ، ولم تشد على قلبه ، يا له من فتى غرير ، انه يرجو ان تنقضي حياته دون ان يظلم الناس الناس ، ودون ان يظلموه ، ويرجو ان ينصرم عمره دون ان يرتكب مأثما او يقترف ذنبا ، وليس في مثل هذا الرجاء شر ، ولكنه امر محال .

واستعرض بيكوف حياته القاسية الماضية ، فاشفق على نفسه اشفاقا فاض فغمر قسم منه ابن اخيه :

ـــ انه يعرف ان الحياة على غير نمط الناس امر عسير ، وعليه ان يفهم ان الزبدة لا تكون حيث لا تكون الاثام ، والا كان الحساء غير ذي دسم ، والعمل غير ذي جمال ، كل انسان يتمنى ان ينام فوق سرير ناعم ... ومع ذلك ارى ان يعقوب لطيف ، وان في عروقه نقطة من دم آل بيكوف .

ودخل عليه كيكين فقال له :

ـــ اما وارثي فليس ذا همة ، ولكنه ساذج طاهر ، انه يريد ان يعيش كما يعيش الاطفال ، اسمعت طوال حياتك مثل هذا القول ؟

ـــ ورد ذلك في الانجيل على لسان السيد المسيح .

وزمجر بيكوف زمجرة ولمس خاصرته الملتهبة وتمتم بين اسنانه :

ـــ اما المسيح فابن الله ، واما انا فابن ايفان بيكوف ، انا ابن فلاح .. عليك ان تميز بيننا ... المسيح لم يبع قشور القنب وحثالته كما بعت ، ولم يعش في الزمن الذي اعيش فيه . واخذته الحماسة فجعل يضرب بيده على ذراع مقعده :

ـــ اذا كنت تحب ان تعيش كما عاش السيد المسيح ، فانزع عنك ثيابك ، واخلع نعليك ، وامض في خرقك البالية ، حافي القدمين ، واحلق وفرتك احلقها ...

واتعبته حماسته فمسح وجهه وسكت ثم قال في صوت حزين يعاتب كيكين :

ـــ وانت ايضا تسخر مني .. تقول لي : المسيح ، المسيح ، ولكن المسيح والاحدب اثنان لا واحد . أسمعت : العصافير تزقزق وستظل تزقزق ... اما انا فسأموت ، ان المسيح لم يشعر بمثل هذا الشعور .

وقال كيكين عرضاً :

ـــ ولكن المسيح شكا ألمه في بستان المعصرة ذات يوم .

وانبسطت أسارير بيكوف فتابع في حماسة :

ـــ نعم ، نعم ... تذكرت ذلك !... انه هو نفسه قد رأى نهايته العاجلة مرة المذاق ، وسأل اباه ان يصرف عنه كأسها ، فما

اصنع انا بعد ذلك ولست الا ابن فلاح ؟

وزفر زفرة أليمة وغاص في مقعده ومد ساقيه وجعل يئن ويتوجع :

ـ ما العمل يا كيكين ؟ قل لي : اي يد ستستولي على ثروتي ؟ أليس مما يدفعك الى الجنون دفعاً ان توفر وتقتصد وترتكب الاثم وتجمع الثروة ثم ها انت ذا تفقد كل شيء وتلقيه في هاوية ليس لها قرار ؟ قل لي حدثني !

وظل يتكلم وهو شاك غاضب ، وجعل يلمس اواعي الازهار في النافذة، وكيكين مطرق الرأس يقرع ركبته !

وتنهد بيكوف ثم قال :

ـ اذا حرمت يعقوب فلم يرثني ، ولم اهب ثروتي لمشروعات البر ... كانت نهباً لخزينة الحكومة ...

وقضم أسنانه وتابع :

ـ وعندئذ اكون كأني مجرم جرد من حقوقه وحكم عليه بالسجن المؤبد ! ـ هذا صحيح .

ـ يا لها من لعبة محكمة ! ـ لا مناص منها

وظلا امداً طويلا صامتين يبحثان عن حل،واخيراً رأى الاحدب ان يدعو بيكوف ابن اخيه الى الاقامة معه في بيته ، وعند ذلك يدرسه عن كثب ، ويستطيع ان يؤثر فيه ، لعل الصبي ان يصبح اكثر جداً وأصلب عوداً ، اذا أحس بما تفرضه الثروة على صاحبها من وجائب ...

ووقفا عند هذا القرار .

المطر يلهب زجاج النوافذ بسياطه ، والريح تزمجر ، والبروق تلمع فتنير الظلال في الشارع ، وتغمر الغرفة المعتمة بنور أزرق باهت. والنباتات على اطراف النوافذ كأنها عليلة ، والاثاث يهتز وينساب الى البقعة البيضاء عند الباب . والحطب في المدفأة الخزفيـــة يطقطق ويشتعل ، وبيكوف جالس امام المدفأة يدفىء رجليه الباردتين ، وقد قفزت على ثيابه وركبتيه وصدره بقع حمر نارية تنير شطراً من لحيته ، ثم لا تتجاوز ذلك الى وجهه لانه كان يلقيه في ما وراء المدفأة وعيناه مغمضتان كأنه اعمى .

وجلس كيكين المكعب المكور فوق مقعد ابيض ، يخفي يديه في صدره ، تحت صندوقه ، والنار تنعكس على عينيه انعكاساً غريباً وهو يحدق في وجه يعقوب الذي اعتمد كتفه على آجر المدفأة ، وجلس يتحدث في صوت خافت كأنه يقص اسطورة :

ـــ كلما تراكمت الاموال في صناديق بعض الناس زاد طمع سائرهم فيها ، وهكذا يرى الفقراء تلك الثروات الضخمة ...

وتمتم بيكوف وهو يفتح عينيه :

ـــ إيه !

وتنهد كيكين ، وغمس الملقط في المدفأة وجعل يقلب الحطب ،

وفرقعت جذا النار في حنق ، وبصقت الشرر على لوح النحاس امام المدفأة .

وسحقها بيكوف بقدمه ، والقى نظرات حزينة :

ـ كل شيء خبيث ، كل شيء مؤلم .

وبدت سحنة كيكين كرة من نحاس صدىء عبث بها الناس زمناً ثم تركوها ، وانتصبت على جمجمته شعرات كأنها القطيفة ، وفغرت الدهشة فمه الضفدعي ، وامتدت أذناه كأنهما قرنا شيطان ، وبدا وجه يعقوب كأنه صورة رسمت في قعر آجرة بيضاء ، ولم تزده الثياب الجديدة التي يلبسها رقة ووداعة .

وسأله بيكوف ساخراً :

ـ أتظن ان الفقراء اوشكوا ان يثبوا بالاغنياء وينهبوهم ؟

ـ لا بد ان توزع الثروة في عدل .

ـ أهكذا تقول ؟ ان تفكيرك خبيث يا صديقي !

ـ لست وحيداً في هذا التفكير فملايين الناس يفكرون كما افكر

ـ وهل أحصيت عددهم ؟

وتدخل كيكين في مهارة فقال وهو يحدق في المدفأة:

ـ الحق ان الشعب ناقم .

وهز بيكوف حاجبيه وقال له نافخاً :

ـ اسكت ! ألا ترى اني ساكت

منذ شهرين يقيم ابن اخيه عنده ، وبيكوف يلاحظ ان موافقة الاحدب على آراء يعقوب تزداد وتطرد ، وانه اصبح اكثر فطنة واوفر رزانة ، وانه اصبح يرعى الفتى رعاية المعجب المطيع . لقد شم

الكلب رائحة سيده الجديد .

ـ هؤلاء هم الناس .

اما ابن اخيه فأولى له ثم اولى ان يكون احمق غير محنك ، من ان يكون كثير الخبث ، شديد المكر والدهاء ، محال عليك ان تفهم ما يريد ، انه يتحدث اليك لطيف المدخل رفيق المخرج ، كأنه يريد ان يأخذ بيدك ، دون ان تشعر ، ويقودك الى ان تفكر كما يفكر ، والى ان تعتقد كما يعتقد من ان كل ما في الحياة من شر وتعقيد راجع الى الثروة والثروة وحدها . وانها لفكرة يمكن ان يعتنقها ذو عاهة او احدب ، ولكنها لا تناسب بعقوب ولا تلائمه . وبيكوف يرى انه في الدعوة اليها غير مخلص ، فهو يعرف ان ثروة عمه كلها ستنصب في خزائنه بعد موته ، وهو ايضاً لا يشبه في شيء ذلك الذي يحب الناس والذي هو أهل ان يوزع على الفقراء منهم كل ما يملك ، بل ان فيه كثيراً من عادات السادة وطبائعهم ، فهو يحترم الاشياء ويعنى بها ، ويحب النظام والنظافة . لقد كان البواب ناثاً فأقعده وجعله يمشي على قدميه وأعانه على تنظيف باحة البيت ، وهي التي لم تلق منذ امد طويل حظها من العناية ، ونقب عن كل شيء ، والقى القبض على الوكيل متلبساً بجريمة السرقة ، وهو فوق ذلك كله لا يحب الشحاذين ... انه كالماء الكدر لا يصفو لك دائماً حتى تتبين ما وراءه . وهذه الخصلة من الشعر المتمردة المتدلية على صدغه ، لعل في دماغه خصلة اخرى من الشعر متمردة عنيدة ...

ولكن ... لعله انما ينشر هذه الهرطقة المزعجة الشاذة لسبب واحد : انه يريد ان يخيف المريض ويثيره ويسرع به الى القبر .

ولقد اقلقت هذه الفرضية بيكوف ، فسأل يعقوب ذات يوم في صراحة :

ـ ولماذا تنفق علينا كل هذه الاراجيف ؟ !

وقلب ابن اخيه عيني خروف واجابه :

ـ يجب ان ننظر الى حياتنا نظرة اكثر عمقاً ووضوحاً ، لقد كان لعيني هذا الفتى تعبيران : اما احدهما فتعبير عن صبي صالح قريب الى النفس ، واما الاخر ، وهو الغالب ، فتعبير جامد احمق اعمى يستولي على عينيه في اللحظات التي يندفع فيها الى نشر بدعه .

ـ يجب ان نتبين امورنا في وضوح ، يجب ان يتفاهم الناس ليتعاونوا ...

ونفخ بيكوف ثائراً :

ـ ليتعاونوا على من ؟ ومن الذي اعتـــدى عليهم ؟ انهم هم المعتدون . افهمت ؟

وعاد الشاب يقول في عناد :

ـ لن يستطيع الناس الحياة ما دام بينهم اختلاف . لقد قال المثل القديم : من يزرع الريح يحصد الزوبعة . يجب ان يندم وجدان العالم على ما قدم ، والا فالثورة ناشبة لا محالة ...

وصرخ بيكوف في ملل :

ـ انت كذاب .

والايام تمضي ، وبيكوف يسأل في كل يوم نفسه : اهذا الفتى اهل لان يكون لي وارثاً ام غير اهل ؟ وحالت تأملاته هذه دون تفكيره في الموت ، بل ربما خيل اليه انها تهدهد من ألمه .

ـ يا له من فتى غامض غامض .. الشحاذ يفهم ان المال دعامة الحياة الصحيحة المتينة ، وانه حصن الانسان المنيع .. بل ان القنافذ تفهم هذا الامر البدهي .

وفي الليل ، اذا هدأت الاشياء ، وصمت كل ما على الارض ، كأن الليل نفسه يريد ان يتأمل في النهار الذي انقضى ، ويستعرض ما كان فيه من حوادث ، في الليـــل اذا ازدادت الافكار وزناً وكثافة وكادت تصبح اشياء محسوسة ملموسة ، في الليل حين تنفلت كبكبة العقل المتشابكة وتمد خيوطها القاتمة في كل مكان تحاول ان تصطاد كل شاردة ، في هذا الليل كان بيكوف يصغي بأذنيه الى جاره الذي يسكن الغرفة فوقه ، فيتبين انه ما يزال سهران لم ينم ، ويخيل اليه انه يسمع حديث يعقوب العنيد ، ويرى وجه الاحدب المتعجب .

وهذا الفتى يبحث في تعديل القوانين ، وتحديد سلطة القيصر ، نعم انه يتنطع ويدس انفه حتى في هذا الموضوع الخطير .

انه يعلم ان الناس تهامسوا حول هذا الموضوع خـلال الحرب الروسية ـ التركية ، وانهم الان يتحدثون عنه مرة اخرى لان حرباً جديدة قد شبت نيرانها ، وان المدنيين وحـــدهم هم الذين يثيرون هذه الضجة ، فهم لا يريدون ان يحاربوا ، وهم يخافون ان يجندوا ويساقوا الى ميدان القتال ، ولقد حاولوا في بدء الحرب التركية قتل القيصر ، فلم يوفقوا الى قتله الا بعدها :

ـ ما احمق هؤلاء الناس : الحرب قديمة قدم الانسان ، فعلام يحاربون الحرب ؟ لقد حارب اليشع ، وكان داود نبياً طيباً رحيما

له مزاميره ، ولكنه اضطر الى خوض المعارك ، وآباء الكنيسة حاربوا ، وامراء الروس التقاة قاوموا اعـــداءهم التتر ، والقديس الكسندر نيفسكي اباد اهل السويد ابادة ما فيها رحمة ولا شفقة ، مع ان اتباعه لم يقتلوا واحداً منهم ، ولكن الله قتلهم ، يا للجهالة الجهلاء.

واتعب بيكوف استلقاؤه على سريره ، فمضى يجلس قرب النافذة ، ويتطلع الى النجوم والى القمر ذي الوجنتين المنتفختين ، وشعر بالضجر ينصب من السماء المزدهية بالنجوم انصباباً . وتذكر كاهن الكنيسة ، الاب تيودور ، وقوله المكرور :

«ما اشد روعة الانسان حين يرى جلال السماء العجيب» وتذكر ان هذا القول لم يكن يحول بين الاب ولعب الميسر . وتذكر انه خاصم هذا الكاهن حين عارضه فقال له :

ــ ليس في السماء شيء من الجلال ، بل انها لا توحي الى الانسان الا شيئاً واحداً : هو انه حقير ضئيل . وعندي ان السماء في النهار حين تكون فارغة تلمع فيها الشمس وحدها ، خير من السماء في الليل. وان السماء في الليل حين تكون محتجبة بالغيوم فلا نراها ، فكأنها غير موجودة ، خير منها حين تكون صافية . لقد خلق الناس للارض وعلى الارض ، وحين يحاول رجال الدين انتزاعهم منها يخادعون انفسهم فكأنهم يدعون العروس ليلة عرسه الى ان يترك حفلة زفافه ويمضي الى الثكنة العسكرية .

وتذكر ان الكاهن غضب حتى احمر وجهه غضباً .

ورأى الاشجار في الحدائق تتعانق وتلتصق في الظلام كأنها غمست في شحم اسود ، والمدينة كلها يسودها صمت قاتل ، صمت لا يطاق ،

يكاد يدفعك دفعاً الى ان تصرخ بملء فيك :

ـ النار ! .. النار ! .. الحريق ! .. الحريق ! ...

وبيكوف يستغرق في شكواه ونجواه :

ـ يا رب لم عذبتني ؟ ولم اذنب اكثر من سواي .

وعندئذ تذكر اولئك الذين عرفهم وعاملهم واستعرضهم واحداً بعد واحد . لقد كانوا جميعاً اكثر منه شراً ، وأشد حرصاً وتكالباً ، وأعنف حسداً ، وكان موسوساً شديد التنقيب والتدقيق في معايبهم ، ولذلك لم يستخلص له اصدقاء أوفياء ، وعاش فريداً وحيداً ، عاش ليبني له في تؤدة وصبر عشاً مكيناً يحيا فيه حياة هادئة والى جانبه امرأة صالحة وجميلة : ما أحسن ان يرى الانسان في بيته زوجة غضة بضة ذات جمال يكسوها كما يكسو الطفل لعبته ، ثم يرافقها الى النزهة في ايام العيد ، ثم يركب معها في عجلة يجرها حصانان ، ويعرض على الناس زينتها وأزياءها فوق جسمها الرخص وقوامها الناعم فتنطلق غيرة النساء من عقالها ، وحسدهن من سجنه ... ما أجمل هذا وما أحلاه ... وتطلع بعينيه المتغضنتين الى الاثاث الثقيل ، وذكر الآمال التي علقها عليه حين اشتراه : للاشياء مغزاها ، والانسان يعيش بينها كما يعيش في حصن منيع ، جرد الغرفة مما فيها من اثاث تصبح كأنها تابوت كبير :

ـ آه ! يا رب ! ماذا جنيت ؟

وعاد فخيل اليه انه يسمع خطوات يعقوب رائحة غادية في مستودع الاحدب ، وهو ينسج بكلماته فسيفساء بدعه وهرطقته كما تنسج آلة التطريز نقوشها وزخارفها .

ـ ما اصلب عوده وما اشد تمسكه بآرائه ، وليس في هـذه الصلابة ما يزعج ، وان كانت افكاره صبيانية ، فأنا نفسي عندما كنت شاباً كنت لا اعرف ما اريد .

ومضت تأملات بيكوف في دروب وشجون : مهما يكن فليس لي الا وارث واحد هو يعقوب ، هذا نصيبه . وجعل بعد ان اتخذ هذا القرار ، وهو شاعر ان عقله يأباه ، يجهد نفسه في التماس المعاذير فلا يجد غير واحد : ولد متواضع عفيف ، وهو اذا أصبح غنيا كان اكثر عقلا واوضح وعيا .

ولكنه كان ، اذا نسي لحظة واحدة ان يعقوب سيصبح له وارثاً ، يرضى عنه ويجد فيه كل ما يبتغيه ، ويرى ذكاءه مغايراً لذكائه : انه ذكاء غريب ينساب من قلب لم تدنسه الحياة بأقذارها ، وايمان راسخ لم تزعزعه نكبات الايام . وربما شعر بيكوف ، وهو يصغي الى حديث ابن اخيه المعقد احيانا ، والغامض احيانا ، بشيء هو الحسد او يقاربه ، فتراه يتخذ عامداً وجه الرجل الصارم العبوس كيما يواري ابتسامة غير ارادية تكاد تنفرج عنها اساريره .

ـ حسناً .. حسناً .. العصفور يزقزق ، انه ما يزال صغيراً ذا زغب اما انا فقد صلب ريشي ولست استطيع ان اشاركه في زقزقته ، ما اهون الامور على هذا العفريت الصغير !

وكان آثر الاحاديث عند بيكوف ، حديث يعقوب عن معلمه القديم تيتوف ، وعن سكراته العرابيد ، كان يضحك ويفتح شدقيه وهو يسمع قصصه فتبدو اسنانه الذهبية كلها ، ويغمض عينيه مسروراً ويغمغم : لقد سره ان يجد عدوه مضحكا الى حد يستدعي الاشفاق

عليه ، وان يجد عين وارثه يعقوب حادة يقظة قادرة على اكتشاف مواطن الضعف والقبح في الناس .

ــ انت ملاحظ ماهر ، وهذه الملاحظة نافعة ، فمن الخير لك ان تعرف اية رجل يعرج عليها المرء ، ان كانت اليسرى فاضربه على يمناه ، وان كانت اليمنى فاضربه على يسراه .

ورسم يعقوب ذات يوم هذه الصورة الزيتية بصوته الصافي :

ــ اذا حل فصل من فصول السكر عند تيتوف دعا اليه المهندس بالتايسكي ، وجعلا يشربان عشرة ايام دون انقطاع ، في كل يوم عند المساء يرسلان الخادم الى الحديقة ليدفن فيها عشرين زجاجة من الخمر في عشرين موضعا ، على شرط ان تكون مطمورة لا يبدو منها شيء ، فاذا طلع الصباح مضيا الى الحديقة ، وفي يد كل منهما عصا ، يبحثان عن الفطر ــ كما يسميانه ــ فيقلبان الارض بحثاً وتنقيبا فاذا عثر احدهما على زجاجة صاح في سرور : وجدتها ... وجدتها ...

ثم يمضيان بها الى عريشة الكرمة فيشربانها ثم يعودان الى البحث عن زجاجة اخرى من جديد .

ولكل نوع من انواع الخمر عندهما اسم من اسماء الفطور ، «فالنبيذ» هو «الفطر الاحمر» ، و «الشمبانيا» هي «الغاريفون» و «الكونياك» هو «الفطر البرتقالي» و « العرق » هو « الفطر الاشني » ولا يزالان يبحثان عن الزجاجات سحابة نهارهما ويشربان ما يجدانه على الترتيب فيبتدئان مرة بالعرق ... ومرة بالنبيذ ... فاذا سكر تيتوف مضى

يمشي على قوائمه الاربع ، كأنه الملك بختنصر ، وهو يغني لحنا من الحان « الشيطان » :

انا لم الق محبا ذا حنان
انا ملعون على كل لسان

وبالتاليسكي مكب على الارض يبكي وينتحب : لأنه لم يستطع اخراج زجاجة من الارض باسنانه وحدها ، فلا يزال يئن ويصيح :

ـ واأسفا على شبابي ... واضياع قوتي ...

ويضحك بيكوف رغم ما يثير الضحك من ألمه ، ويقول سوموف في اسف ظاهر :

ـ الحق ان ذلك يضحك ، ولكني اشفق مع ذلك على هؤلاء الناس ، انهم ذوو قوة خارقة ، وموهبة ممتازة ، انهم قادرون على تحريك الجبال الرواسي ، ومع ذلك فهم لا يحركون غير اصبعين من اصابعهم . يخطىء من يظن ان الناس حريصون ، فانا ارى انهم لا يحرصون على العمل .

وقال بيكوف يعارض ابن اخيه رغبة في المعارضة وحدها :

ـ انت شاب ، لا ترى كبير امر .

وفكر في نفسه :

ـ ان هذا الصبي لغزمبهم ، يفكر فيما يتعلق بالاعمال تفكير المعلم الماهر . نعم : الحق ان الناس لا يرغبون في العمل ، انهم كسالى . ولكن ما اغرب هذا الامر . مستخدم ، عامل مثلا ، يجأر بالشكوى لان معلمه لا يعمل كما ينبغي ، وهو يقول علينـــا ان نعمل في

وجدان ، ولكن يجب ان نترك الافكار الصبيانية جانبا اذا اردنا ان يعمل الناس جميعا في وجدان وبكل ما يملكون من قوة .

وقال لابن اخيه في غضب .

ـ انت ولد معقد يا يعقوب ، وهناك مسائل لم تفكر فيهـا تفكيراً جديا .

وسكت سوموف وغض من نظره ، وحـاول ان يبسط خصلة شعره المتمردة فازدادت حرانا وتمرداً .

— ٤ —

وفجأة شرع التجار يضطربون ويتحركون ، وارهقوا خيولهم رائحين غادين اياماً طويلة ، وجعلوا يطوفون الشوارع ، وهم في عجلاتهم تبدو عليهم الجلالة والمهابة ، وسأل بيكوف صاحبه كيكين حين رأى ما رأى من حركة هؤلاء الذين لم يتعودوا مثل هذه الحركة وهذه السرعة ، وهو يطل عليهم من النافذة :

ـ ما بال الناس يتخبطون ؟ !

لقد تغير وجه الاحدب الكالح وبدا اكثر تبلجاً وانبساطاً ، وفقدت عيناه الدجاجيتان ما كان فيهما من تقلب مرضي ، بل ان مشيته قد زادت رسوخاً ، وتلفته اصبح اقل تكلفاً واكثر ألفة ، وكأنه حين يتحرك يحمل بين صندوقيه شيئاً يقفز قفزاً ، وقص الاحدب على بيكوف ، وهو يغمز بعينيه في حماسة ، ويرتل كلماته ترتيلاً ، ويشد حبالة سراويله مرة بعد مرة ، قصة غير معقولة ، حادثاً غريباً اشتركت فيه دار البلدية ، ومكتب اصحاب الحرف ، والتجار والاشراف وحتى رجال الدين .

ـ انها لحكاية عظيمة يا ايجور ايفانوفتش .

ـ اسمع . هل الحاكم في المدينة ؟ ـ نعم .

ـ اذن ما الخبر ؟

وابتسم كيكين ابتسامة جديدة ماكرة :

ـــ وماذا تريد ان تعرف ؟

ـــ يا لك من احمق .

لو كان في المدينة يعقوب لقص حوادثها في وضوح ، ولكنه يقضي اياماً في موسكو ، وهو غائب منذ خمسة عشر يوماً ، والمدينة تزداد حركتها وتتفاقم امورها ، وتنمو ضوضاؤها فكأنها في اعياد الاسبوع المقدس ، وكأنها تدوي فيها وشوشة حريق كبير .

وسأل بيكوف مرة اخرى صاحبه غاضباً :

ـــ ما الخبر ؟

ـــ اسمع يا ايجور ايفانوفتش ، ان الشعب يريد ...

ـــ من الشعب ؟ .. الفلاحون.. تكلم ولكن لاتكن مهذاراً ..

ـــ ويريد الفلاحون كذلك ..

ـــ ما يريدون ؟ ـــ يريدون الارض ...

ـــ لمن ؟ ـــ اسمع ...

وتململ الاحدب وجعل يتلوى على كرسيه ، كأنها سرطان ألقي في ماء يغلي ويفور ، ويبتسم مكرهاً ويتمتم :

ـــ الناس جميعا يطلبون تصفية الحساب ...

وفرك يديه ولمع في عينيه فرح سكران ، يناقض قصته الباكية ، واختلجت رجلاه العبلتان ونقرتا الارض تحت المنضدة واستمر يقول :

ـــ لقد صاح الحقد الدفين على الحياة القذرة باعلى صوته ، وشرع العقل ينفض عنه غبار النوم ويصحو من خماره ، واتفق الناس جميعا على امر واحد ، هو انهم لن يسمحوا مرة أخرى ببقاء هذه الحياة ...

ـ اية حياة ؟؟ ايها الشيطان ذو الصندوقين !

ـ ولكنها حياتنا هذه التي نحياها ... لقد شرع الناس يبحثون في كل امر شجعانا خير خائفين ، واقسم لك انك لو رأيت بعضهم لخيل اليك انهم كانوا نائمين منذ قرون، وان تلك الحياة التي عاشوها ليست حياتهم ابداً ، وان الماضي الذي مر بهم لم يكن الا حلما عابراً ، وانهم الان قد قرروا وصمموا ...

والاحدب جالس وقد زوى صدره قليلا ، وأدار وجهه الى بيكوف ، وسترته البنية القصيرة تقفز فوق صندوقه ، وتكشف عن كرة بيضاء في قميصه ، وعن حمالة سراويله ، وسراويله تتناثر عليه بقع من الطين تبلغ ركبتيه .

وفكر بيكوف :

ـ كيف قضيت حياتي مع مثل هذا الابله التافه ؟...

ـ نعم ! انها حكاية يا ايجور ايفانوفتش. لقد احتل الناس الشوارع واقاموا المتاريس والاستحكامات امام دار البلدية !

ـ اغرب عن وجهي .

وبقي بيكوف وحده فقال في نفسه :

ـ دوبدة حقيرة تزعجني ... يجب ان يسكن بيتا وحده ، ولست في حاجة اليه ما دام يعقوب في منزلي ...

وعاد يعقوب من موسكو في يوم ماطر عند المساء ، ونزل الى غرفة عمه يشرب الشاي في سماء رائعة ، كأنه عائد من الكنيسة بعد القداس ، وكأن في نفسه شيئا قد امتلأ حتى كاد ينفجر ... وكأن خصلة شعره المتمردة قد ازدادت وقاحة وانتصابا ، وكأن حاجبيه

قد برزا في قلق ، وكأن صوته اصبح اشد قيمة وتهدجا ، بل لقد جلس على كرسيه جلسة أقل تواضعا،بل لقد دفع هذا الكرسي الى المنضدة بقدمه ، واقلق هذا الموقف بيكوف وانذره سلفا بنكبة ستحل به عما قريب ، وسأله : كيف الاحـــوال في موسكو ؟..

وبدأ ابن اخيه يتحدث ، وهو ينتزع الالفاظ ويفكر ، وكان صوته مرتفعا ارتفاعا غير مألوف ، فكأنما هو شاهد يؤدي شهادته في محكمة ، وقد اقسم امام القاضي : انه لن يقول غير الحق ...

مضى في حديث طويل ، ولم يجب على اسئلة عمه الغاضب ، وربما وقف عند بعض المقاطع من حديثه ، كأنه يحاول ان يتذكر امراً او وكأنه يبحث عن كلمة شاردة ...

وقال بيكوف في نفسه : انه يكذب وهو يريد ان يخيفني. وآلمه ان لا يكترث يعقوب باسئلته ، واضحكه ان يرى الاحدب يهتز على كرسيه في صبر نافد ، ويفغر فاه الضفدعي ، يتحين الفرصة لالقاء دلوه في الدلاء :

ـــ كلبان شم كلاهما رائحة صاحبه

وقص عليهما يعقوب قصصا لا تصدق ، لقد ثارت طبقات الشعب كلها فجأة لأمر غير معروف ، تطالب بتخفيف آلام الحياة ، وكل طبقة منها تمشي وراء هدف عينته لها مصالحها ، والناس جميعا كأنهم سكارى يسرع بعضهم الى حرب بعض .

وسأله بيكوف غاضبا حذراً :

ـــ وما عسى ان يحدث ؟

ـــ ستحل بنا الكارثة اذا لم يثر ضميرنا جميعا ، فنندم على ما كان

في الماضي ، ونتعاون على المستقبل . يؤسفني ان اقلق بالك، ولكني لا استطيع ان اكتم عنك انا قادمون على ثورة مسلحة ...

واجابه بيكوف في لهجة الواثق الحازم :

ـــ أنت تكذب ، واين السلاح ؟ انت تكذب ، بل انك تستثمر مرضي وعجزي عن الخروج الى الشارع ، وانت تحاول ان تقتلني خوفا وذعراً ..

وصرخ بصوت مخيف ، وهو يضرب المنضدة بيده فتهتز الاقداح فوقها وتدندن ، وعيناه جاحظتان :

ـــ لست عجوزاً شمطاء ، وما اظن الساعة قائمة ، بل انا لا اخاف هذه القيامة .. بل انا لا اخاف شيئا ابداً ، وانا المالك المطلق لثروتي ما دمت اعيش ..

وسكت بيكوف حين رأى ابن اخيه قد احمر وجهه حتى احتقن، وجعل يقدم كرسيه الى المنضدة ، ويسعل سعالا جافا ، ويقول له كأنه يدق المسامير :

ـــ اذن فاسمح لي ان افسر لك موقفي منك تفسيراً صادقا لا ريب فيه ، انت تظن اني أعبأ بميراثك ، وقد اشار كيكين الى ذلك ذات مرة ، ولكنك مخطىء في هذا الظن ، بل انت مخدوع ، وفي ظنك هذا اهانة لي واحتقار ... لست في حاجة الى ثروتك .. بل انا ارفضها رفضا باتا . وانا مستعد ان اكتب لك صكا رسميا بالتخلي عن هذه الثروة .. وسأكتبه اليوم واسلمك اياه ...

لم اسكن بينك الا لامر واحد هو انك مريض وحيد ، وانك تشعر بالسآمة وتحس بالكآبة .. وانا اعلم انك خير من كثير من

امثالك من المرابين ، لان فيك بعض ما احب من استقامة ، فلقد كنت قادراً على ان تقضي على الدكتور بيكر قضاء تاما قانونيا ، وعلى ان تقذف به في هاوية الشقاء والبؤس ، ولكنك لم تقض عليه ، ولقد كنت قادراً على القضاء على الاوانس كازيميرسكي ولكنك لم تقض عليهن ، ومن هنا كان مصدر احترامي لك واعجابي بك ، ومن اجل هذا وحده سكتت بيتك .. اما الآن فقد حان لي ان انصرف فالوداع ..

كان يعقوب يسعل ويفح كالأفعى في بدء حديثه وانتهى الى تمتمة خافتة لا تسمع ، وخنقته السعلة فنهض ومضى الى الباب وهو يقول.

ـ انا اشكر لك ما كان من معروف ... ولكن يؤسفني ...

وصرخ به بيكوف ، وهو يشد زناره حول خصره ، ويدفع طرفي الزنار دفعا غير ذي سبب :

ـ مهلا ... مهلا ... لا تحزم امتعتك ...

ولكن يعقوب سورموف كان قد غاب وراء الباب ، وعندئذ صرخ بيكوف بالاحدب :

ـ عليك به ... امسكه ...

وقفز الاحدب وتكور واختفى

ودمدم بيكوف : ما هذا ؟ !

وتطلع الى الباب في دهشة ، وارهف سمعه الى الاصوات التي تختنق رويداً رويداً على السلم .

لم يدهشه ان يرفض سورموف ثروته ، قدر ما ادهشته معرفة هذا الصبي لقصة الدكتور بيكر والاوانس كازيميرسكي ...

اما الدكتور فكان رجلا ابله وقع في براثن مراب ذكي ، واما الانسات كاز بيرسكي فقد كدن يدمهن استهتار ابيهن الخليع ...

وقال في نفسه :

ـــ انه يحترمني ... ولقد ظلمته واثرته ، وهو الطفل البريء ...

وصرخ وهو يستقبل سورموف نادما خجلا :

ـــ حادث عارض . ولم تتركني ؟ اجلس ، ثروتي لكوحدك .. تلك هي ارادتي ... بل ذلك هو القانون .

وقال يعقوب وهو ما يزال واقفا معتمداً على الكرسي في صوت خافت ولكنه حازم :

ـــ ارفض الحديث عن الميراث .

ـــ أهكذا ؟ أأنت لا تريده فعلا ؟

ـــ كلا لست اريده ... ثم ان من الممكن ان تلغى الوراثة عن قريب ...

وسأله بيكوف وهو يؤرجح عقدتي زناره :

ـــ وكيف ذلك ؟ ... اجلس .

واحس باحساس غريب ، انه مثل احساس ذلك الشحاذ الجائع الذي تصدق عليه الناس بعد حرمان طويل بقطعة طيبة وكبيرة من الخبز الابيض ...

ـــ لا تؤاخذني ، فأنا مريض ... ما من احد يستطيع ان يحول بينك وبين ارثك ... ذلك هو القانون ...

وجلس يعقوب وهو يقول :

ـــ هذا القانون يجب ان يلغى ، ولسوف يلغى ، فهو مصدر

الكوارث .

وقال بيكوف يمازحه، وقد رآه يتألم، وتطاول وجهه، واضطربت نظراته :

ـ هذا صحيح ... ولسوف يلغى ...

ثم سأله : أأنت محموم ؟

ـ كلا ، ولكنك مخطيء حين تمزح ... لقد ثار الشعب على الاغنياء ناقماً ... ويقول بعض الناس : ان عليه ان يستولي على أموالهم جمعاء ...

وقال بيكوف يطمئنه :

ـ لا تخف .. لا تخف .. لن يأخذوا منها شروى نقير ...

ـ ولكني غير خائف.. بل انا نفسي أرى هذا الرأي وادعو اليه.

وشهق بيكوف ، وغرغر صدره ، ثم زفر فقذف بهواء رئتيه ، وبألمه دفعة واحدة ، وتحدث في صوت قوي مرتل كأنه الخوري تيودور حين يتلو صلواته :

ـ الانسان بلا مال ، كالعظم بلا لحم ، المال هو جسده ... هو لحمه ... أفهمت؟ هو لحمه ..

وضرب ببطن كفه ذراع المقعد الجلدي وعاد يقول :

ـ نعم هو لحمه ... والانسان لا يعيش الا لكي يكسوه اللحم، ويشبع رغباته .. والعالم كله قائم على اشباع هذه الرغبات ، والعمل الانساني كله انما يهدف لهذه الغاية ... ومن يطلب القليل لا يساو الكثير ...

وقال يعقوب في بسمة ساخرة :

ـ حسناً اذن فكل انسان يريد ان ينال كل شيء ...

ـ وكيف ذلك؟..ماذا يريد الناس ؟ لا تؤمن باقوالهم بل انظر الى اعمالهم ... ليس يكفينا ان نرغب ونريد ، ولكن علينا ان ننتج ونكسب ، واذا كان كل شيء كثيراً كفى الناس جميعاً ورضي الناس جميعاً ...

وقال بيكوف في رفق وعطف :

ـ لست أبله ، وانا أفهم ما تريد ، انك تريد ان تكون الامور سائرة في بساطة وصفاء كما قال المسيح . نعم ان المسيح اراد ان يقسم كل شيء قسمة عادلة متساوية ، ولكنه كان يعيش في عالم فقير أما نحن فنعيش في عالم غني ، ثم ان الناس كانوا أقلاء في عهد المسيح ، وكانوا فوق ذلك يريدون قليلا من الاشياء ، ولا يقدرون عليها ، اما الآن فقد اصبحنا اكثر حرصاً وطمعاً ، واصبحنا كثيرين وزادت حاجتنا الى كل شيء ، اذن فواجبنا الآن ان نعمل ونجمع وندخر .

ودهش بيكوف من آرائه هذه نفسها ، كانت تتوارد الى خاطره فجأة ، وكأنها مستقلة عن إرادته ، او كأنها شخص اجنبي ولكنه مغر لذيذ .

وحيرته هذه الافكار واقلقت باله ، وبدت واحدة له منها ذكية صحيحة مقبولة قادرة على حل ما في الحياة من تعقيد حلا قريباً سهلا ، فعاد يردد ويصغي الى نفسه في انتباه :

ـ علينا ان نبدأ بالعمل ، ونجمع كل شيء ، وعلينا بعد ذلك ان نقوم بتوزيعه على الناس توزيعاً بالسوية والعدل ، حتى على الناس

ذوي العاهات الذين ليس من ورائهم نفع ، نعم حتى على هـؤلاء ، وهكذا لا يبقى على ظهر هذه الارض بؤس ولا قذر ، ولا ظـل للآثام ، وهكذا يشبع الناس جميعاً ويعيش كل فرد منهم كما يشاء ويختار ، وهكذا لا يزعجك واحد منهم بحقده ولا بحسده ، وهكذا يصبح كل انسان قديساً ، نعم يصبح كل انسان قديساً .

وما زال بيكوف يتحدث وهو يزداد دهشة من حديثه ، شاعراً ان تفكيره قادر على ان يتطور في هذا الاتجاه الجديد تطوراً ليس له نهاية ، وانه يلهمه الالفاظ الضرورية للتعبير الهاماً سهلا ، وخيـل اليه ان كبة الخيطان المتلاحمة لهذه الفكرة ، مهجورة في ذهنه منذ امد بعيد ، منذ الازل ، وانها الان قد دبت فيها الحياة وبدأت تدور وتدور ، وهي تمد وراءها في طريقها سلكاً قوياً لا نهاية له ، سلكاً يقطع امتداده انفاس بيكوف ، فكأنه محمول في سرعة على طريق ملساء مصقولة ، والكلمات الجديدة تجري على لسانه في سهولة فوق العادة كأنـه فكر بها دائماً ، والقاها دائماً ، وسره ان يحس انه ذكي من نمط جديد ، وان يرى الاحدب يبتسم وهو يصغي اليه اصغاء فيه بهتة وفيه ذهول ، وان يرى يعقوب ينحني على كرسيه وينظر اليه في حنـان بعيني صبية جميلة ، كل هذا مؤثر ، كل هـذا كان يدفع بيكوف الى الخشوع ، وهو يحس بالقوة الخارقة التي تربط بين الناس وتوحد بين قلوبهم ، وتجعلهم اخواناً على سرر متقابلين ، واغرورقت عيناه بدموع الحنان ، وفجأة خارت قواه فأكب على المقعد وزمزم وهو يغمض عينيه مرهقاً تعباً :

ـ ومن ذا الذي يسره ان يكون جزاراً يذبح الناس ؟! ولكن

الحاجة الى العمل كبيرة جد كبيرة ، وعلينا ان نسرع ، فالموت يفسد كل شيء ، ويهدم كل مشروع .

ونهض كيكين فقال في اهتمام :

ــ يجب ان تنام يا ايجور ايفانوفتش ، فانت تعبان ، تعـــال ساعدني يا يعقوب .

وتأبطا ذراعي بيكوف ، وسارا به الى سريره ، واضجعاه في عناية ، ثم انصرفا في غير ضجة ، والاحدب يلف ساقيه امام يعقوب ، ويعقوب يمشي وراء الاحدب مطرق الرأس يمد خصلة شعره .

— ٥ —

وعاش بيكوف أياماً لذيذة ، شعر انه في عيد او في حفلة تكريم تغمره غيمة ندية من العناية والرعاية ، يحيطه بهما كيكين ويعقوب . ولقد انهارت قواه فجاء له بممرضة عصبية المزاج ، طويلة نحيفة كأنها قضيب ، نقش الجدري وجهها ، وترك عينيها دون لون ، ورأى بيكوف ، وهو يلحظ انهيار قواه صابراً مستسلماً ، من خلال ضباب احساساته ، ان وجه كيكين يزداد اصفراراً وطولا ، وعينيه تزدادان قلقاً وتقلباً ، وان يعقوب قد اصبح سوداوياً اصفر حزيناً ، وانه يغيب عن البيت مرات في اليوم الواحد ، وانه حين يعود يتحدث في قليل من الحماسة ، وفي كثير من الحذر .

وقال بيكوف في نفسه :

ـ انهما يرعيان امري بقياً علي ، ولا يريدان اقلاق بالي .. ان نهايتي قريبة ... ما في ذلك شك .

واصبحت فكرة الموت اقل رهبة ، ومرارة ، وتضاءل مغزاها الشديد ، ولكنه مع ذلك كان يردد حيناً بعد حين مرغماً او كالمرغم:

ـ الان طابت لي الحياة مع يعقوب ، لقد فهماني وادركا سري ، ولقد بسطت امامهما روحي كما تبسط الورقة فقرأا فيها من أنا .

ويبتسم ويفكر في وارثه .

ـ أوضحت له معنى الثروة وقيمة المال فأصبح الطفل قلقـاً . وهـو الذي كان يقـول بتوزيـع الثروات على الفقراء ... يا للرجال ...

وسأل الممرضة ذات يوم يريد ان يفهم قصص كيكين الغامضة ، واحاديث ابن اخيه المنطوية :

ـ ما اخبار البلد ؟

وقالت المرأة :

ـ الثورة مستمرة .

قالت المرأة ذلك في غير اكتراث ، كأن الثورة عمل عادي من اعمال الناس ، او نوع من العربدة والسكر والتجارة ، ثم تثاءبت ، وهي التي تتثاءب دائماً ، فتضع يدها على فمهـا ، وترسم الصليب ، كأن النوم منعقد ابداً في عينيها ، وتمشي مشية القطة ..

وبدأ اطلاق الرصاص مساء السبت واستمر الى صباح يوم الاحد ، وكان صباحاً شديد المطر والظلمة ، ودوت الطلقات الاولى من بعيد وسمع بيكوف اصواتاً كأنها نقر بطة عـلى صفيحة من التنك ، فأيقظ الممرضة وسألها :

ـ ما هذا ؟

ومدت المرأة رأسها كالحية ونظرت من خلال النافذة القاتمة :

ـ لا اعرف . اتريد الدواء ؟

وتعددت الطلقات واقتربت ، وقال بيكوف :

ـ اظن انها طلقات نارية .. ايقظي من فوقنا ..

لقد دلته اذن الجندي القديم على نغمات الرصاص .

ومضت الممرضة تتأرجح كأنها تمشي في ريح صرصر عاتية ، وتغرز شعرها تحت منديلها ، وجلس بيكوف على سريره يصغي الى الاصوات ، ويصقل شعره ولحيته بيديه المرتجفتين :

ـ انهم يطلقون الرصاص.. يا للكلاب.. ولكن من هـؤلاء ؟

وهبطت الممرضة الدرج وهي تصرخ صراخاً احمق :

ـ الرصاص .. الرصاص .. فوق السقف ..

وقال بيكوف :

ـ الرصاص .. انه في الهواء .

ـ كلا .. كلا ..

ـ اخرسي ، انه تدريب عسكري ، فاطلاق النار ممنوع ..

ـ كلا .. كلا .. وحق اجدادي ..

وهرعت المرأة الى النافذة ففتحتها ، واكتسحت الاصوات الغرفة ، وفجأة انفجرت قنبلة ، فاهتزت الواح الزجاج ودندنت ، واشتعلت في نوافذ البيت المقابل انوار ذات الوان .

وجلست المرأة على الارض ورسمت اشارة الصليب وهي تقول:

ـ حنانك يا رب .. رحمتك يا رب ..

ودخل كيكين يلبس معطفاً وقبعة ، وهو يتعثر ويلتف ويمشي على رؤوس اصابعه وبدا وجهه في نور الصباح نحاسياً ميتاً .

وهتف به بيكوف :

ـ ماذا حدث ؟ ويعقوب ؟ اين يعقوب ؟

ـ خرج ـ ومتى ؟ والى اين ؟

وخلع كيكين قبعته وقال في صوت يكاد يخونه ، وهو يفرد ذراعيه المعوجتين :

ـــ لقد قلت له: يا ايجور ايفانوفتش ، لاتتدخل في هذه القضايا ، فهي لاتليق بك ، لقد خدعونا .. ولكن ..

ـــ ومن الذي خدعنا ؟

ـــ خدعتنا الحكومة .. ولكن يعقوب قال لي : لا يجوز ان نتخلى عن الرفاق .. وانها لدناءة.. انه من مؤسسي جمعية كونونوفو.

وفهم بيكوف ، وكأنما اصابته ضربة سوط ، ونزل من سريره وهو يصرخ :

ـــ ثوبي ، هاتي ثوبي ، قوديني الى النافذة ايتها المرأة ..

وتطلعت المرأة الى الشارع من النافذة وقالت :

ـــ اصنع ما بدالك ، النار تشتعل ، اما انا فذاهبة الى البيت

ولكنها لم تذهب، بل انها لم تتحرك من مكانها، بل انها ركعت على ركبتيها امام النافذة .

ودمدم كيكين وبيكوف يلبس ثوبه :

ـــ حذار .. فقد يخترق الرصاص النافذة .

وقال بيكوف صارماً حازماً :

ـــ كفى كفى ايها الممرض .. ايها الشريك ..

واقتربت الطلقات ، وسمعت صرخة طويلة :

ـــ آه .. آ ..

واغلقت بوابات الدور في شدة ، وتردد صدى فأسين تحطمان الخشب ، وصرخ صوت حاد في غضب :

ـ اهربوا الى البساتين ..

ورأى بيكوف حصاناً اسود يجري في الشارع وقد ربط رجل فوق سرجه ، فاصبح الحصان كأنه جمل ذو سنام ، وعرف من مشية الحصان انه يعرج ، ومرت ثلاثة اشباح تلتصق بالحيطان ، واحداً بعد واحد، وجر آخرها خشبة تضرب احجار الرصيف وتعلق بجوانبها

وقال بيكوف :

ـ اللصوص .. اللصوص ..

واحس بفراغ يثقل نفسه ، بفراغ تضيع فيه الاصوات جميعا ، وتغرق فيه الافكار جميعاً .. ودوت رصاصة وارتجفت الاوراق اليابسة على الاشجار ، وقال بيكوف :

ـ شظايا قنبلة ..

وسمع صوت كيكين الحيي :

ـ يجبَ ان تبتعد عن النافذة ..

ودفعه من كتفه وهو يقول :

ـ اذن فقد نشبت الثورة ..

ـ نعم لقد ثار العمال يا ايجور ايفانوفتش .

ـ او يعقوب منهم ؟

ـ انه من انصار كونونوفو ...

ومد بيكوف يده من النافذة وصرخ به :

ـ اذهب ... اذهب وهاته ... يجب ان يعود حالا . لمـــاذا تسكت ايها النذل ... أتخفيه عني ؟

وتمتم كيكين كالمذنب :

ـ لقد قال لك يعقوب قولاً صريحاً ، ستكون الثورة مسلحة ..

ـ اذهب وهاته .. لو مات جعلت حياتك مستحيلة ..

واصطكت اسنان بيكوف وخيل اليه ان لحيته ستسقط عما قريب ، ووقف منتصباً كأنه جندي في ساحة القتال ، فارع الطول مستقيم القناة ، قرب البقعة الغامضة من النافذة ، جاحظ العينين ، مختلج الساقين ، يتطاير ثوبه ويخفق ، وينحدر عن كتفيه ..

ورددت الممرضة :

ـ انا ذاهبة الى بيتي

وسقط بيكوف في مقعده ثقيلا واستمر ينظر الى الشارع الذي غمره ضباب الفجر .. الطلقات اصبحت اقل عدداً ، وضربات الفأس اكثر بعداً ، وسقط شيء ما على الرصيف او امام البوابة فحطم الالواح ... وثراءت له اسلاك الهاتف اكثر امتداداً واضطراباً ، وامتلأ الشارع سريعاً بضجة صماء من ركض وصرير خشب ، ودوى صوت مألوف في غضب :

ـ ارفعوا البوابة .. في الباحة براميل .. دحرجوها وهاتوها ..

وفطن بيكوف :

ـ البراميل في ساحة داري ..

وفي الشارع تحت نوافذه كانوا يصرخون :

ـ اربطوا الاسلاك بأعمدة المصابيح .. مددوها عبر الشارع ، اكسروا مصراعي الباب ... رجلي ... رجلي يا شيطان ...

وقال بيكوف في صوت عال :

ـ انه صوت يعقوب .. صوت يعقوب ..

لم يرغب في التفكير فيما يصنعه يعقوب ، ومع ذلك فلم يكف عن الدمدمة ، وصدره معتمد على حافة النافذة :

ـ انه يدافع عن نفسه .. انه يقاوم ..

والممرضة تركض من زاوية الى زاوية وتنتحب :

ـ يا رب.. يا رب .. الاشقياء .. اللصوص ..

وصرخ بها بيكوف:

ـ اجلسي واخرسي والا سحقتك ..

وتناول العصا التي يضرب بها السقف عند دعوة كيكين وهزها في وجه الممرضة متوعداً .

وظلت اسنانه تصطك ، ودخلت شعرات من شاربيه فمه فصقل شاربيه وصقل لحيته ، ولكنه لم يستطع سلطاناً على فكيه ، وملأ نفسه صمت داخلي مخيف ، واحس بفراغ كبير عميق ، رغم ما كان في الشارع من ضجة تثور حينا بعد حين ، ومن صرخات وصرير اخشاب ، وطلقات نارية بعيدة ..

وعند البوابة اصدر صوت من الاصوات امراً :

ـ ارم الكاهن .

واخيراً بدا الصباح ، وارتسمت في الضباب اشباح واضحة .. لم يكونوا اكثر من مئة ثائر يتكومون على الجانب الايسر من دار بيكوف ، كانوا يقطعون الطريق بأعمدة الهاتف التي يجرونها من اسلاكها كما يجر السلور من شاربه .. وجاءوا من باحة المنزل المجاور بأكداس من العلف المضغوط ، واخرجوا منها عجلة ، وجعلوا من كل اولئك ، وهم يلهثون تعباً ، حصناً منيعاً .. وتطلع الناس من

وراء النوافذ يرمقون هذه الاستعدادات بعيون عمياء ..

ومن بعيد دوى صوت بوق يدعو الجنود الى الاجتماع وصرخ الصوت الواطىء :

ـــ انتبهوا ..

وسقط شيء ما على احجار الرصيف فدوى ثم تحطم ، وقال بيكوف في صوت عال يوجه كلامه الى الممرضة كأنما هي التي سألته رأيه :

ـــ اتسمعين ؟ انهم يهدمون ويكسرون ..

وجعل يرتجف من البرد ، ويجذب ثوبه الى صدره ، واطل من النافذة ، فرأى يعقوب يركض وهو يحمل معولا الى البوابة ومن ورائه عشرة رجال يتسلحون بالبنادق وبالفؤوس ، ويحمل واحد منهم عريش العجلة ، وجعلوا جميعاً يدفعون الباب ويحطمونـــه ، وارتقى يعقوب كاهل هذا الباب ، ثم نزل الى الباحة وصرخ :

ـــ ارفعوا دفتي الباب ، خذوا البراميل .

كل هذا كان كالحلم لا يصدق ، كل هذا كان يراه بيكوف بعينيه ثم لا يصدق عينيه .

وايقظته من حلمه زعقات الممرضة المجنونة :

ـــ آه ... اللصوص ... اللصوص ...

وانفتح الباب واكتسح الرجال الباحة .

وصرخ بيكوف وقد انفق على صراخه هذا كل ما بقي له من قوة:

ـــ قفوا ايها الاباليسة ... قفوا ... اطردهم يا يعقوب .

ورأى وجه يعقوب يتطلع اليه مستديراً كأنه القرص وسمعه ينادي:

ـ خدعونا يا عماه ... وهم الان يقتلوننا ...

وسمع صوت الاحدب الشاكي يصيح :

ـ ابتعد عن النافذة يا ايجور ايفانوفتش ...

وارتفع مصراع الباب الايمن ثم ترنح ثم سقط في الباحة مدوياً، وأمسك به بعض الزجال وجروه الى الشارع ، وبقي منهم من بقي يعالجون المصراع الثاني لينتزعوه ، ويدحرجون البراميل التي كانت تتدعبل ويتدعبل بينها الاحدب الصغير .

وامسك بيكوف وهو يشتم ويلعن باصيص للأزهار ورماه في الباحة على الناس ، وسقط الاصيص بعيداً عنهم ، ورآه بيكوف ، ومع ذلك فقد صرخ بالممرضة :

ـ هاتي أواني الازهار ... هاتي الكراسي ... هاتي كل ما تقع عليه يدك ..

ورن في صوته تهديد جعل المرأة الخائفة تتثبت وتسرع في صمت تحمل اليه الاواني ، وتدفع الكراسي برجليها ويديها ، وجعل بيكوف يرمي الناس من النافذة، بكل ما بقي فيه من العزم،ويلقي عليهم كل ما تصل اليه يده ، وهو يصرخ ويزعق ويزأر كالوحش الضاري :

ـ يعقوب سأقتلك هذه المرة ... خذ ... كيكين يا ابليس اللعين ... خـــذ ...

وأطلق واحد رصاصة فحطمت الزجاج واقتلعت قطعـــة من الجص في السقف فسقطت، وجلست الممرضة على الارض تصرخ وهي ساجدة ، والتفت اليها بيكوف ينتهرها :

ـ أنت كذابة ... انت لم تموتي ... هيا هاتي يا ساقطة ...

وفي الوقت نفسه دوت طلقات من النار وصاح صوت رفيع عند البوابة:

ـ طوقونا ... طوقونا ...

ورأى بيكوف ابن اخيه يزحف على الارض وهو يجر ساقه جراً ، ورأى الرجل ذا اللحية يـــترك العريش ويسقط الى وراء ، فيضرب برأسه الباب وتسقط قبعته ، وبرز عنـــد البوابة من قلب الضباب جنود يحنون ظهورهم ، ويصوبون حرابهم ويصرخون :

ـ سلم ... سلم ...

وجعل بعضهم يطلق النار على الهاربين .

وانفجر بيكوف يضحك ضحكة وحشية مرعبة ، ومد يديه الى النافذة ، وجعل يشير باصابعه ، ويضرب الارض بقدميه ، ويصرخ ويزعق :

ـ اطعنوا هذا .. هذا الذي يزحف .. اطعنوه .. مزقوه .. والاحدب ... هذا الذي يختبىء وراء البرميل... الاحدب ...

وفتحت الممرضة نافذة اخرى على مصراعيها وجعلت تصيح :

ـ اطعنوهم ... اطعنوهم ... اطردوهم ...